بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يوسف

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ١]

تبدأ الآيةُ الأولى أخي المؤمن، بقولِه تعالى: ﴿الر﴾ وهي من فواتح السُّورِ، وهي من معجزاتِ القرآنِ الكريم. ولقد توقَّفَ السادةُ العلماءُ عندَ فواتحِ السورِ وقوفاً طويلاً لا نقِفُه هنا. وإنما نَخْتَار من أقوالِهم أنها إيذانٌ لفُصَحَاء العربِ وأُدَبَائِهم، أنَّ هذا القرآن مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ الله تعالى. وأنَّ فيه تحدياً كبيراً لهم، أنْ يأتوا بمِثله، وهم في واجهةِ الناسِ السائرينَ خلْفَهم. المنتظرين لإمكاناتِهمْ الأدبيةِ في المجيء بمثْله، ولقد ساهمَ المتصدُّون منهم في إحقاق الحقِ دون إرادة منهم بإعلانِ عَجْزِهم وفشَلِهم، فاستيقنَ العامةُ بأنَّ هذا القرآن هو حقاً منْ عندِ الله تعالى. اللطيفةُ الجميلة في قولِه تعالى: ﴿الر﴾ أنها تضع المستمِع للقرآن الكريم في حالةِ إنصاتٍ، لأنها أتَتْ بجديدٍ غريبٍ ما اعتادتِ الآذانُ سماعَهُ في بدايةِ الأحاديث، وفيها تحضيرٌ نفسي له، دَأَبَ أهلُ الاختصاصِ في أيامِنا على اعتمادِه كوسيلةٍ للفْتِ الأنظار، ما توافَقوا على تسميتِه بالمؤثراتِ العامة. كالمؤثرات الضَوْئيّة. أو المؤثرات الصَوْتِية. وهنا، ولله تعالى المثلُ الأعلى، نُسَمِّيها بالمؤثراتِ النفسية.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿تلكَ آياتُ الكتاب المبين﴾.

في هذا الشَطْرِ من الآية، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿تلك آيات﴾ فمِنَ المعروفِ في اللغةِ، أنَّ «هذه» تُسْتَعْمَلُ للإشارةِ إلى القريب. بينما ﴿تلك﴾ تُستعملُ للبعيد، إلا أنه في مضمارِ البلاغةِ، يُمْكِن الإشارةُ إلى القريبِ باستعمالِ أدواتِ البعيدِ، للتعبيرِ عن بعدِ المرتبةِ في الكمالِ وعُلُوِّ الشأن.

اللطيفة الثانية: تظهَرُ في الأسلوبِ اللُّغويِّ الذي نَزَلَتْ به هذه الآية، مقارنةً معَ الظرفِ المكانيّ والزمنّي الذي نَزَلَتْ به السورة، فقد نَزَلَتْ سورة يوسف الهادئة الهانِئة، ذاتُ الأسلوبِ القَصَصِي، في الفترةِ المَكيَّةِ مِنَ الدعوة، فترةِ المصاعبِ والمشاقّ. والتضييقِ والاضطهاد، والملاحقةِ والتعذيب، في عامٍ هو أصعبُ الأعوامِ على رسول الله ﷺ ألاَ وهو عامُ الحُزْن. عامٌ فَقَدَ فيه عَمّه أبَا طالب وزَوْجَتهُ السيدة خديجة. وكانتِ السورُ تنْزِلُ على رسول الله ﷺ ذات وقعٍ عنيفٍ على الكُفّار، جَزْلَى زاجِرَة، صورٌ قصيرةٌ بآياتٍ قصيرة، حتى القِصصُ فيها قصيرة. ذاتُ وتيرةٍ سريعةٍ مُتَلاحِقَة، وإذا بسورةِ يوسف، تُفْتَتَحُ بآيةٍ واسعةٍ شاملة، هادئةٍ مُطْمَئِنة، تَبْعَثُ الطُمأنينَة في النفوس، فيها إشاراتٌ خفيةٌ للرسولِ والمؤمنين معه، بأنَّ الطُمأنينَة قادِمة، وها نحن نَقرأها اليوم، فيُخَيَّلُ إلينا، وكأنها سورةٌ مَدَنيّة. الأُسلوبُ فيها يقاربُ أسلوبَ السُّورِ المَدَنِيّة، وما كانَ الرسولُ ولا المؤمنون معه يومها، قد عاشُوا الفترة المدَنِيّة، وتلك واحدةٌ من صورِ الإعجازِ في القرآنِ الكريم، وبذلك نفْهَمُ جيداً معنى قوله تعالى: ﴿تلكَ آياتُ الكتابِ المبين﴾، أي إنَّ القرآن كُلَّه مِنْ عند الله تعالى، سواءٌ أنزلَه في الفترةِ المكيَّةِ، أو في الفترةِ المدنيّة، ومَنْ كان عنده شك، فليقرأ سورة يوسف، ولْيَنْظُرْ في توقيتِ نُزولِها، فسيتيقن أنَّ الكتاب واحد، وأنَّ مَنْ أنْزَلَهُ هو أدْرَى بمآل الدعوةِ ومصيرِها، فكانَ هذا البرهان الساطع.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿إنا أنزلْناه قُرآناً عربياً لعلكم تَعْقِلُون ۝٢﴾[١].

في هذه الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في دقةِ الوصْفِ الإلهيِّ للقرآن. فبالمقارنَةِ معَ الآيةِ السابقة، حيث يصِفُه الله تعالى بأنه كتابٌ مبين، أي أنه يُكْتَبُ في الصحائفِ، فيَتِمُّ حِفْظُه في هذه الصورة. تأْتي الآيةُ التي نحنُ بصددها فيصفه الله تعالى، بأنه قرآن، أي يَحْفَظُهُ الناسُ في أذهانِهم، ويقرأونه بألسنتهم، وتلك صورةٌ أُخرى مِنْ صورِ الحفْظ، ولم يعرفِ الناسُ في العصورِ السالفةِ غير هاتين الصورتينِ مِنَ الحفظ، ثم فتَح الله تعالى على الإنسانِ أَبوابَ العِلْم، فإذا به يتَدَرّج في أساليبِ الحفِظِ إلى صورٍ جديدة، منها الأشرطةُ المُسَجَّلَةُ المُمَغنَطَة، السَمْعِيّةُ والمَرئِية، وها هو اليومَ، يَحْفَظُ القرآن الكريمَ على الأقراصِ المُدَمّجة، وفي صحائفِ الأقراصِ الصُلْبة، في بطونِ الحواسيب، وما فعَله إلا ليؤَكِّدَ خلودَ قولِ الله تعالى: ﴿إنا نحنُ نَزَّلنا الذِكْرَ وإنّا له لحافظون﴾[٢].

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿إنّا أنزَلْنَاهُ﴾ ونَلْحَظُ هنا أنها إحدى الصِيغِ التي أرادَها الله تعالى للتعبير عن حالِ وصولِ القرآن إلى الناس، ولقد تعدَّدَتِ الصيغُ في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول: ﴿نزّل﴾، ﴿وأُنزِل﴾ ﴿ونزَّلْناه﴾، ﴿ونزَّلَه﴾، ﴿وأنْزَلَ﴾، ﴿ونُزِّل﴾، ﴿وأنْزَلنا﴾، ولكلٍ من هذه الصيغِ مدلولاتُها ودِقتها، فسبحان الله العظيم، تعالى شَأنه وجَلَّتْ قدرتُه فيما أنْزَل.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿قرآناً عربياً لعلكم تعْقِلُون ۝٢﴾[٣].

لقد نزلتِ السورةُ في قريشٍ في مكة، مَعْقلِ العربيةِ، ومُلْتقَى فُصَحاءِ

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٢].
(٢) [سورة الحجر، الآية: ٩].
(٣) [سورة يوسف، الآية: ٢].

العرب، وجهابذةِ اللغة، أصحاب الفصاحةِ والبلاغةِ والبَيان، الذين يزْقُبُون كلام الخُطباءِ والمتكلِّمين، ويُصَنِّفُونهم ويَنْتَقِدُونهم. لقد جاءَهُمْ رجلٌ أُمِّيٌّ بكلامٍ عربي مبين، ثم أعْلَمَهم بأنه مِنْ عند الله تعالى. وتحدَّاهُم أنْ يأتُوا بمِثْلِه فما استَطاعُوا، ثم تحدَّاهُمْ بأَنْ يأتوا ببعضٍ من مِثْلِه، فما استَطَاعُوا. ثم تحَدَّاهُمْ أنْ يَأتوا بسورةٍ واحدةٍ مِنْ مِثْلِه، فما استطاعوا، فزُلْزِلُوا في أمتنِ ما يَمْلِكون، وبذلك نفْهَمُ معنى قولِه تعالى: **﴿إنّا أنزلْنَاه قُرآناً عربياً لعلَّكُمْ تعقلون﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوحينا إليك هذا القرآن وإنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِه لمن الغافلين ﴿٣﴾﴾**[1].

وفي هذه الآية لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿نحن نَقُصُّ عليك﴾**.

وحين يأتي الخِطابُ منَ الله تعالى بصيغةِ الجَمْع، فإنّ ذلك يتَّفِقُ معَ المرادِ مِنْ لفت أسماعِ الناسِ إلى أهميّةِ الموضوع المُثارِ، ما يُضْفِي رَهْبةً عاليةً تَحْمِلُ المستمِع على الإنْصات.

وفي اختلافِ الصيغِ دِقّةٌ مُتناهية: فإنْ المُتَتبِّع لآياتِ الكتابِ. يجدُ أنَّ الله تعالى حين يُنْزِلُ آيةً في معنى العقيدةِ والتوحيد، يُنْزِلُها بصيغةِ المفرد، كقولِه تعالى: **﴿إنني أنا الله لا إلٰه إلا أنا فاعبُدْني﴾**[2] أو كقولِه تعالى: **﴿يا موسى إني أنا الله رَبُّ العالمين﴾**[3].

أما حينَ تأتي الآية في غير مَعْنَى التوحيد، فنراها بصيغةِ الجَمْع، كقولِه تعالى: **﴿ولا تقْتُلوا أولادَكُمْ مِنْ إملاق نحن نَرزُقُكم وإيَّاهم﴾**[4] أو كقولِه

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣].
(٢) [سورة طه، الآية: ١٤].
(٣) [سورة القصص، الآية: ٣٠].
(٤) [سورة الأنعام، الآية: ١٥١].

تعالى: ﴿**نحن أعلمُ بما يستمعون به إذْ يستمعونَ إليك**﴾[١].

فانْظُرْ أخي المؤمن، إلى دقةِ القرآنِ في إيراد الصيغ.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**نحن نَقُصُّ عليك** ۝٣﴾.

وكلمةُ «**عليك**» ليستْ لازمةً لتمَامِ المعنى، إلا أنها تَحْمِلُ الكثير من المعاني.. فلقدِ اختصَّ الله تعالى نبيه الكريم بالذكر، زيادةً في التشريفِ والتكريم، لإراحةِ نفسِهِ، وإذهابِ حُزْنه، وهو في لحظات نُزولِ السورةِ الكريمةِ في حالٍ من الحُزْنِ شديدة، ويصِلُ بنا التأمُّلُ إلى فَهْمٍ أعْمَقَ في مواقيتِ نزولِ القرآنِ وأسبابِهِ: فنحن نعلم أنّ القرآن الكريم نَزَل إلى السماءِ الدنيا جملةً واحدة، ثم أمرَ الله تعالى جبريلَ عليه السلام، بإنزالِهِ على قَلْبِ الرسولِ الكريمِ تَترا، بأوقاتٍ محدودةٍ، تتّفِقُ معَ مُسْتَلْزَمَاتِ نُزُولها، متوافقةً معَ الأحداثِ التي ستَجْرِي، فسبحان الله العظيم القائلِ في كتابِهِ الكريم: ﴿**وإنْ مِنْ شيء إلا عندَنا خزائِنُه وما نُنَزِّلُه إلا بقَدَرٍ مَعْلُوم**﴾[٢].

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**نحن نقُصُّ عليك أحسَنَ القَصص**﴾. فالله تعالى وصَفَ سُورةَ يُوسُفَ في احتوائِها لقِصّتِه، بأنها أحسنُ القَصَص. وحين يقولُ الله تعالى عنها ذلك. وهو الذي خَلَقَ العَقْل وخَوّلَهُ سرْدَ القِصَص، وأعطاهُ مبادئَ عِلْمِ القَصَص، وجَعَلَ مِنَ القَصَص إحدى مُمَيّزات الإنسان في استرجَاعِ الأحداث وتقويم التصرُّفاتِ واستخلاصِ العبر، فإنْ ذلكَ يعْنِي بأنّ الله تعالى، أوْصَلَها إلى مرتبةِ الكَمال وجعلَ فيها كل المُقوِّماتِ التي تُبْنَى عليها القِصَص، من حيثُ الموضوعُ، والزمانُ والمكانُ وتسَلْسُلُ الأحداث، وإبرازُ تَقَلُّباتِ أحوالِ النفسِ الإنسانية، وتكيفُ الأسلوبِ معَ الوقائعِ، وكيفيةُ الانتقالِ

(١) [سورة الإسراء، الآية: ٤٧]

(٢) [سورة الحجر، الآية: ٢١].

مِنْ حَدَثٍ إلى آخر، واستعمالُ أعْلَى أوْجُهِ البلاغةِ والبيانِ، وأوْدَعَ فيها عِلْماً كاملاً، لم يَسْتَخْلِصِ الإنسانُ حتى الآن كُلَّ كُنوزِه. ولا عجب. فالجواب يأتي عَنْ مصْدرِه مُباشرةً، في تَمامِ الآيةِ بقولِه تعالى: ﴿**بما أوْحَيْنَا إليكَ هذا القرآن**﴾.

اللطيفة الرابعة: في قولِه تعالى: ﴿**وإن كُنت مِنْ قبلِه لِمَن الغافلين**﴾.

في هذا الشطرِ الأخيرِ مِنَ الآية، تأكيدُ التثبيتِ بأنّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى، وذلك مِنْ وَجْهينِ اثنين:

الأول: أنَّ الرسول ﷺ كان أُمياً لا يَعْرِفُ القراءة والكِتابة، ولم يقرأ قِصَص الأوّلين، وقد حاولَ اليهودُ وهم أهلُ كتاب، أنْ يَمْتَحِنُوه فسألوهُ عَنْ قصةِ يُوسف، وهم يَعْرِفونها. فأنزلَ الله تعالى هذه الآية: ﴿**نحن نقُصُّ عليك أحسنَ القَصَصِ بما أوْحَيْنَا إليك هذا القرآن وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِه لِمَنْ الغافلين**﴾ ثم تَلَتْها مباشرةً آياتُ قصّة يوسفَ عليه السلام.

الثاني: أنَّه لو كان الرسولُ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، هو الذي يتقوّل القرآن وينْسُبُه إلى الله تعالى، لتخيّرَ لنفسه الألفاظ، وما نسَبَ إلى نفْسِه الغَفْلَة، علماً بأنَّه المقصودُ مِنْ قولِه تعالى: ﴿**وإنْ كُنْتَ مِنْ قبله لمن الغافلين**﴾، أي غيرَ عالمٍ بقصةِ يوسفَ عليه السلام، وأنّى لك أنْ تَعْرِفَ ولَمْ تجتمعْ لديكَ مُقَوِّماتُ المعرفةِ، من قراءةٍ وكتابة، والأمثلةُ على ذلك في القرآن الكريم كثيرة، كقولِه تعالى: ﴿**وما كُنْت لديهم إذ يُلْقُونَ أقْلامَهُمْ أيُّهُمْ يَكْفُلُ مريم وما كُنْت لديهم إذْ يَخْتَصِمون**﴾[1].

* * *

(١) [سورة آل عمران، الآية: ٤٤].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لتثبيت بشرية الأنبياء والمرسلين في حال حصول نقاش مع أهل الكتاب، وذلك لسوق الدليل على أن صفة البشرية لا تنتقص من مكانة أنبياء الله تعالى ورسله، بل تشرفهم، ويمكنك ذكر هذه الآية: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾

٢- للتدليل على أن القرآن الكريم نزل من عند الله تعالى، فتذكر هذه الآية، شارحاً أنه لو كان من عند الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان ذكرها.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٢]

نبدأ أخي المؤمن معَ هذه الآيةِ بقصةِ يوسفَ عليه السلام، في افتتاحٍ مباشِرٍ مُوجَز، يضَعُ القواعدَ للمحورِ الأولِّ في القِصة، بموجِبِ حوارٍ يدورُ بين يوسفَ عليه السلام، وأبيهِ يعقوبَ عليه السلام، وكلاهما مِمَّن اصطفى الله تعالى مِنْ ذُريةِ إبراهيمَ عليه السلام، وكلاهما مَنْ وَهَبَ الله تعالى منَ الصفات العُلى، بينَ بني البشر. فحريٌ بنا أنْ نستَمِعَ مُنْصِتينَ إلى ما جاءَ في الحوارِ بينهما.

تبدأ الآيةُ بقولِه تعالى: **﴿إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبَتِ إني رأيتُ﴾**.

لقد وضَعَتْنا الآية مُبَاشَرَةً في مشْهَدِ الحوارِ الذي نفْهَمُ منه كلَّ ما يَنْبغي فَهْمُه لمتابعةِ الأحداث:

فيوسفُ عليه السلام، قد التجأ إلى أبيه النبيِّ يعقوبَ عليه السلام، ليُبْلِغه ما رأى في المنام، طالباً منه المساعدةَ في تأْوِيلِ ما غُمّ عليه مِنَ الرؤيا.

ويعقوبُ عليه السلام، كان قد مَنَّ الله تعالى عليه مِنْ قَبْلُ بفضلِ تعبيرِ الرُّؤْيا. ثم أكرمَ ابنَه يوسفَ عليه السلامُ من بعدِه بهذا الفضل، والذي سيكونُ أحَد المعالِم الرئيسية في بُروزِ شخصية يوسفَ عليه السلام.

ونجدُ أنَّ موضوعَ الرؤيا، هو محورٌ أساسيٌ في قصةِ يوسفَ، والأحداثُ الجسام التي حصَلَتْ في زمنه، دارَتْ حولَ الرُّؤَى وتفسيرِها. كما أننا نجدُ أنّ صِحّة تفسِيرِها، أثَّرَتْ بصورةٍ بالغةٍ في استدراكِ نتائج أحداثٍ وقعت بعدَ حُصولِها..

ونجدُ أنّ الفصلَ الأولَ مِنْ قصةِ يوسف، يبدأ منْ داخلِ أُسرتِه، في طبيعة العلاقةِ التي تحكُم إخوتِه معَه: وذلك بورود الرَّقْم الثابت في الرُّؤْيا، والذي يدُورُ حولَ عددِ إخوتِه وأُمِهِ وأبيه، الذين لم يَظْهَرُوا في الرُّؤْيا بصورتِهم العاديةِ التي يعْرِفُها يوسف، وإلا لانتَفَى أحَدُ عناصِر الرؤيا، ألا وهو التورية، ووجوبُ اللجوء إلى العارفِ بالرُّؤى للتفسير.

وفي هذا الشطرِ من الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿إذْ قالَ يوسفُ لأبيه﴾** فبدأتِ الصِيغةُ بكلمةِ إذ، وهو ما لم نَعْتَد عليه في كلامنا في بَدْءِ السرد، وهي في موْضع نصْبٍ على الظرف، أي اذْكُر لهم يا محمدُ حينَ قالَ يوسفُ لأبيه.

اللطيفة الثانية: في قولِه: ﴿**يا أبتِ**﴾، والأصلُ أنْ يُقالَ: يا أبي، والتاء في الأصل للتأنيث، إلا أنه في النداءِ خاصةً، يُمْكِنُ قَلْبُ الياءِ تاءً لإضفاء الجماليَّةِ على الوقعِ الموسيقي في الأُذُن، ومَنْعاً مِنْ حُصولِ التَكْرَارِ بعدَ كلمةِ أبيه، وترتاحُ الأُذنُ لسماعِ قولِه تعالى: ﴿**إذْ قالَ يوسفُ لأبيهِ يا أبتِ**﴾.

ونتوقَّفُ هنا قليلاً عند مسألةِ الرؤيا، وتوقيتِ بدء حُصولِها عندَ البشَر: فيوسفُ عليه السلام، حين رأى تلك الرُّؤْيا العظيمة، كان حَدَثاً يافعاً في الثانية عشْرَة مِنْ عُمرِه، وقد دَلّ العِلْمُ الحديثُ أنّ الأطفالَ يبدؤونَ بتكوينِ الأحلامِ منذُ سِنِ السادسة، إلا أنه يَنْبَغِي التفريقُ بينَ أصنافٍ مختلفةٍ منَ الرُّؤَى التي تشْتَرِكُ جميعُها في خاصَّيةِ عدمِ انبثاقِها من الواقع الحسيِّ الملموس:

فهناك أضْغَاثُ الأحلام: وهي ما اصطلحَ الناسُ على تسميتِه بالكوابيسِ، أي الأحلامِ المزعجة، التي يَرى فيها النائمُ ما لا يَرْغَبُ برؤيتِه، ويستفيقُ مُنْزعِجاً مرعوباً.. وتلكَ من وساوِس الشيطانِ الرجيم..

وهناك الأحلامُ التي تَتَكَوَّنُ نتيجةَ تفاعُلِ وقْع الأحداثِ في الذهنِ التي تَجمَّعَتْ في مخازنِ الذاكرة، على مَرِّ الأيام، وقد تَحْمِلُ معنًى مُعَيَّناً، وقد تكونُ بدونِ أيِّ معنى، وغالباً ما تُنْسَى قبلَ طلوعِ الصباح.

وهناكَ ما يُسَمَّى بأحلامِ اليقظة.. وهي نتيجةُ نسيجٍ من الأفكارِ، تَتَرَابطُ في الذِهنِ، حالَ الاسترخاءِ وقتَ الصَّحْو. تكونُ مُوَجَّهةً غالباً بفكرةٍ أساسيةٍ يُطْلِقُها الحَالِم، ويَتْرُكُ لها العِنَان..

وهناكَ الرؤيا، وهي ذلك الشعورُ بحدثٍ مترابطِ الأركان، واضحِ المعَالِم، متكامل العناصِر، يَحْمِلُ معنًى ومغزى، يُشيرُ إلى واقعةٍ مُعَيَّنةٍ تلميحاً لا تصْرِيحاً. وينبغي حَمْلُه على مَحْمَلِ الجد، فإذا حصلتِ الرُؤيا معَ مَنْ عُرِفَ بالصّلاحِ والتُّقى، فهي إشاراتٌ بوجوبِ ترَقُّبِ حَدَثٍ مُعَيَّن، ويُعادُ إلى أهلِ

العلم لتأويلِ هذه الرؤيا. وهناك الوحي، وهو ما يَنْزِلُ به الأمينُ جبريلُ عليه السلام، على الأَنبياءِ والرسل، الذين اصطْفَاهُمُ الله تعالَى من صفوةِ البَشرِيّةِ لخيرِها وصلاحِها، والذي بموجبهِ وصلَ إلينا القرآنُ الكريم، هدىً وبُشْرَى وشريعةً ونبراسا، وتلكَ أرقى صُورِ الخطابِ الربانيِّ إلى عبادِه في حياتِهم الدُّنيا.

ولقد أجمعَ العلماءُ المفسرون أنّ رُؤْيا الأنبياءِ منَ الوحي.

ثم يقولُ الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: **﴿إني رَأَيتُ أحدَ عشَرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهُمْ لي ساجدين﴾**.

في هذا الشطر منَ الآية لطائف عدة:

اللطيفة الأولى: في دقةِ التعبيرِ، الدالةِ على نَباهةِ يوسفَ عليه السلام. ففي مثل عُمْرِه، يصْعُبُ علَى الطفلِ العادِيّ الذي يَرى كواكبَ ونجوماً، حتى في اليَقَظَة، أنْ يُحْصِيَ عَدَدَها، ويفرق بينَها.

وها نحن نُدْرِك منذُ الآية الأُولى في القِصة، أنّ رُؤْيَا يوسفَ عليه السلام، ما هي إلا بإعلامٍ ووحيٍ منَ الله تعالى له، وما الإحصاءُ الصحيحُ للعددِ، إلا بتوجيهِ ربّانِيّ لإكمالِه صفاتهِ العُليا.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿رأيتُهم﴾** قد يَظُنُّ المستمِعُ أنّ في الآيةِ تكراراً لفعلِ رأيتُ. والحقيقة أنّ **﴿رأيتُهُم﴾** الثانية، تأْتي بصيغةِ كلامٍ مُستَأنفٍ على تقديرِ سؤالٍ وقعَ هذا الكلامُ جَواباً له، وفي هذا استباقٌ من يوسفَ عليه السلام، لسؤالِ أبيه له عن حالِ الرُّؤيا، وتلك التفاتَةٌ جميلةٌ في كمالِ إضفاءِ صفةِ الدقةِ على وصفِ يوسفَ لرؤياه.

اللطيفة الثالثة: في تساؤلنا: كيفَ للكواكبَ المستديرةِ كالكرات، أنْ تسْجُد؟ وليسَ لنا أنْ نَذْهَبَ بعقولِنا القاصرةِ إلى القِياس المادِّي، ونحنُ نقفُ

عندَ حدودِ الإعلامِ الرباني، فلقد ألْقَى الله تعالى في قلبِ يوسفَ عليه السلام، أنَّ هذه الكواكبَ تُذْعِنُ له بالرُّضوخ.

اللطيفة الرابعة: في تأمُّلِنا لهذا الشطْر من الآية، نقف عندَ كلمةِ ﴿لي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لي ساجدين﴾.

وفي هذا أيضاً، مَعْلَمٌ منْ معَالِم شخصيةِ يوسفَ عليه السلام، التي نَتَعرَّفُ إليها تِباعاً في السورةِ الكريمة: أنْ نَرى الكواكبَ بهذه الدقة، والتدقيقُ في الوصفِ والتعدادُ أمرٌ غيرُ عادي، ثم أن نَراها تسْجُدُ ونحن لا نعْهَدُ بها السجود أمرُ أكْثرُ غرابة، وقد لا نَجْرؤُ على ذِكرِه، أمَّا أنْ نقول: إنّ الكواكبَ العظيمة، التي سَجَدَتْ، قد سَجَدَتْ للطِّفلِ اليافع، وأنْ يقولَ في نفسِه أنها قد سجَدَتْ له، فهذا يَحتاجُ إلى طاقةٍ عاليةٍ جداً، وثقةٍ كبيرةٍ في النفسِ أعْلَى، وقابليةٍ على المواجهةِ نادرة، سنَراها إنْ شاءَ الله تعالى، فيما سيلي مِنْ سيرتِه.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجوب أخذ رأي الكبير، وخصوصاً الوالد، لإيضاح ما غم على الفرد منا من أحداث، وذلك بضرب مثل يوسف عليه السلام ولجوئه إلى أبيه لتفسير رؤياه.

٢ - للتفصيل في الوصف حال شرح حدث معين للآخرين، فلئن أُخذ على المتحدث تفصيله، فله أن يسترشد بوصف يوسف عليه السلام كامل المشهد مفصلاً، مع واقع الإيجاز الحاصل عموماً في القرآن الكريم، فيذكر الآية.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٣]

تبدأ الآيةُ أخي المؤمن في جوابِ نبيِّ الله يَعْقوب عليه السلام، تعليقاً على ما كَلَّمَهُ به ابنُه يُوسف عليه السلامُ من أمرِ رُؤياهُ فيقول:

﴿قالَ يا بُنَيّ لا تقْصُص رُؤياكَ على إخوتِك فيكيدوا لكَ كَيداً﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في التلميحِ دونَ التصريح بحالِ العلاقةِ الأُسْرِيّة التي تسودُ بينَ يوسفَ عليه السلام وإخوتِه، فنعلَمُ مباشَرةً أنّ إخوة يوسفَ لا يُكِنُّونَ لأخِيهم المشاعرَ نفْسَها التي يُكِنُّها الوالدُ له: فهم يَحْسدونَه رُغْمَ أنه صغيرٌ فيهم، ولا يُغبِطُونَه النِعْمة، ولا يَرْجُونَ له العُلو، فلجأ إلى حمايتِه بوضعهِ قواعدَ عامةً في طُرقِ التعاملِ فيما بينَهم. هذا الأمر، يقُودُنا مباشرةً إلى دراسةٍ معمقةٍ لمراتبِ النفوسِ في تعامُلِها معَ الآخَرين:

ففي حالِ يعقوبَ عليهِ السلام، نجدُ تجسيدَ شخصيةِ الأبِ الذي يَحْمِي الضَّعيفَ مِنْ أبنائه مِنْ سَطْوةِ الأقوياءِ فيهم، ويَتْبَع هذا التصَرُّفُ مِنْ مصدرِ مَحبَّتِه لهم جميعاً، وما مَنعُهُ الأذى عن الضعيف إلا تعبيرٌ عن محبّتِهِ الجميع، وهذا ما قد يغُمُّ على الأبناء الأقوياءِ فهمُه، فيُمْعِنُون في الكيدِ للضعيف.

وفي حالِ يوسفَ عليه السلام، فهو لا يزَال في وضعٍ لا يَسْمَحُ له بالدفاعِ

عَنْ نفْسِه، ولا حتى بتأويلِ رُؤْيَاه، ولا حتى بمعرفةِ مشاعر إخوتِه نَحْوَه، فنجدُ فيه تجسيدَ شخصيةِ البَراءَةِ المُطْلقة، الضعيفة الهشَّةِ التي لا تقوى للأحداثِ دَفْعاً، المتروكةِ لرحمةِ الله تعالى وقضائه، وهي شخصيةٌ كثيرةُ التَكْرَارِ في كل المجتمعات، يَجدُها الشيطانُ فريسةً سهلةً يُغْرِي عليها أتباعَه، فيحصُلُ بذلك بينَ الناسِ ظُلْمٌ كَبير.

وفي حالِ إخوةِ يوسف العشرة الذين يَكْبُرونه نجدُ شخصية الإنسانِ الذي تَرَك لنفسِه هَواها، ولم يُجرِ عليها ضوابطَ الاجتماعِ الحميدة، واستمعَ لنَزْغِ الشيطانِ الذي يُزيِّنُ له السَّوء، فيُقدِمُ على أَعمالٍ تضُرُّ بالآخرينَ، لا يَرْضَاها لنفسِه ويَرْضَاهَا لهم. مِنْ هنا، نَفْهَمُ قولَه تعالى: ﴿**فيكيدوا لك كيدا**﴾.

اللطيفة الثانية: في قوله تعالى: ﴿**يا بُنَيّ لا تقْصُصْ رُؤْياك على إخوتِك**﴾ إشارةٌ جميلةٌ إلى علوِ مناقِب يعقوبَ عليه السلام: ففي جوابه تعبيرٌ عن سُرْعَةِ بدِيهةٍ نافذةٍ في تأويل الرُّؤيا. فهو لم يُجِبْ يوسفَ في تأْويله لرُؤياه، بل التفت مباشرةً، إلى نتائج فَهْمِ التأويل، فحذَّر ابنَهُ منْ إخبارِ إخوتِه برُؤْياه، وهو ما يُسَمَّى بالوصولِ إلى النتائجِ بسرعة..

وفي جوابه إخبارٌ غيرُ مباشرٍ عن معرفةٍ عميقةٍ بمشاعر أبنائه فيما بينهم، ولكنه إقرارٌ في الوقتِ عيْنِه، بعدمِ قُدرتِه على تغيير هذا الواقع، الأمرُ الذي يَضَعُنَا أمامَ قاعدةٍ من قواعد علم النفس، مُفادُها: ليسَ كلُّ ما نُرَغبُ به في أولادِنا حاصل، الموجب يقتضي حسنَ التربية، ثم بعدَ ذلك دعاء الله تعالى بالصَّلاح.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**قال يا بُنَيّ**﴾، لغويةٌ هذه المرة: ففي كلمةِ «**بُنَيّ**»، إعمالٌ لُغَوِيٌّ مُرَكّب، فكلمة بنيّ أصلُها بَنَو دخلَ عليها التصغير، فصارَتْ بُنَيْوٌ، ثم قُلِبتِ الواوُ ياءً فصارَتْ بُنَيٌّ بياءَين. ثم أُضيفتْ إليها ياءُ التخصيص، فصارَتْ بُنيّي بثلاث ياءات، ثم أُدْغِمَتْ فصارَتْ بُنَيّ. وهي ذاتُ

وقْعِ حنونٍ مُحَبّبٍ في النّفس، تُفْرِحُ القَلب في أُسلوبِ التّخاطُب الرفيع.

ثم يقولَ الله تعالى: ﴿**إنّ الشيطانَ للإنسانِ عدوٌ مبين**﴾ وتلكَ قاعدة مُطلَقَةٌ لا تَحْمِلُ استثناءات، ولا يجبُ أنْ تغْفَل عن ذهنِ أيٍّ منا. قد قالَها الله تعالى لآدم عليه السلام، مِنْ قَبْلُ حين كانَ في الجنة، وما استَثْنَى منها نبيٌ ولا رسولٌ قوْمَه، ولا خَلا منها كتابٌ مُرْسَلٌ أو صحيفةٌ مُنْزَلَة، فما بالُ الناسِ لا يُلْقُونَ إليها بالاً، ويَقَعُون في حبائِله آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار؟

ولا يفُوتُنا أنْ نقِفَ متأمّلينَ مُعْتَبرينَ لما تضمّنته الآية الكريمةُ منْ قواعد نفيسة في علم النفس نُلَخّصها بالتالي:

أولاً: تحاسُدُ الأشقاءِ واقعٌ موجود، علينا التنبُّه إليه كآباءٍ، مَنْعاً منَ استشرائه بينَهم بوجودنا، وتفَجُّرِه مِنْ بَعْدِنا.

ثانياً: لا تقُم بأفعالٍ تُذَكّي نارَ الغيرةِ بينَ أبنائك، بل عليكَ أنْ تُقْسِطَ بينَهم، فلا تَكُن سبباً في تَبَاغُضِهم.

ثالثاً: رُغم مَعْرِفَتِكَ باستيلاء الشيطانِ على تصرفات بعضِ أبنائك حيالَ بعضِهم، عايِشهُمْ بحبٍ وحنانٍ، عسى الله تعالى أَنْ يَهْدِيَ قلوبهم.

رابعاً: لا تُظْهر النّعمة أمامَ مَنْ تَخْشَى غائِلته كيداً وحسَداً، بل أظْهِرْها أمامَ مَنْ تَتَوسّمُ به الغِبطة لك بها، تعميماً للخير.

خامساً: ليس مِنَ الغيبةِ أنْ تُحذِّرَ أخاكَ مِمّنْ تخَافُهُ عليه، شرْطَ أنْ تكونَ صادق النية، خاليَ الغَرض، مُتحقّقاً مِنَ الخطرِ الذي قَدْ يُصِيبه.

سادساً: إلجأ إلى مَنْ تَتَوسَّمُ فيه الخير لك، للنُّصح والمشُورة.. ولا تتفَرَّدْ بالاجتهادِ في حلِ ما استعْصَى عليك، فما غُمّ عليكَ انْجَلَى عند غيرك.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على وجود واقع التحاسد بين الأخوة حتى بوجود والدهم ووجوب الإعتراف به والتنبه إليه.

٢ - للدلالة على وجوب اعتماد أسلوب الحكمة والحنكة في التعامل مع الأبناء، والتعرف إلى معالم شخصيتهم وفصل منازعاتهم.

٣ - للدلالة على عداوة الشيطان للإنسان، القائمة المستمرة إلى يوم الدين بلا هوادة ودون توقف.

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٤]

تبدأ الآية أخي المؤمن، بتعْدَادِ فضلِ الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، وما أعدّ الله تعالى له منَ الرِفعةِ والسُؤدد، أجرى الله تعالى العِلْمَ بها على لسانِ نبيِّه يعقوبَ عليه السلام، حين كان يوسفُ لا يزالُ يافعاً حدَثا، وفي ظروفٍ يُخْشَى عليه فيها المخاطر، وظاهرُ الحالِ يتَّجه بيوسفَ نحوَ اللا أمان، منْ حسَد إخوتهِ مجتمعينَ عليه، فإذا بهذه الكراماتِ منَ الله تعالى، تُرِدُهُ منْ ثلاثةِ محاور:

المحور الأول: في قوله تعالى: **﴿وكذلك يَجْتَبيكَ ربُّك﴾**

في هذا الشطرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: حصولُ التأكيدِ بالأمانِ اللاحقِ في بدء الآيةِ بكلمةِ

﴿وكذلك﴾، فهي تحملُ ضِمناً كلاماً لم نَسْمَعْهُ مِنْ تطمين يعقوبَ عليه السلام، بأنَّ ما سيحصلُ مع يُوسفَ، ليس إلا أحداثاً عابراتٍ وأنه في حِمى الله تعالى..

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿يَجْتَبيكَ ربُّك﴾ وهي الإشارةُ الأُولى في تفضيلِ يوسفَ على العالَمينَ في عصرِه كما فضَّلَ آباءه من قبلُ إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب وهذه الكرامة بالغةُ الأهمية، إذ إنها ذاتُ مدلولاتٍ واسعة:

➢فهي تفيدُ بأنَّ الله تعالى، قد تعَهَّدَ حِفْظَهُ منْ كلِّ المكارِه التي سيَتَعَرَّضُ لها، مهما عظُمَتْ، وهي التي غُمَّتْ عليه لعدمِ عِلْمِهِ بالغيب، إلا فيما كشف الله تعالى له.

➢وهي تُفيدُ بأنّ الله تعالى قد قَرَّبَهُ منه، ليجعَلَهُ منْ خلاصة أصفياء البَشَر، فيودِعَ فيه من الصفاتِ التي يُحبُّها الله تعالى له، منَ الصدقِ والأمانةِ والقوةِ، والمَنَعةِ والإخلاص والصلاحِ والتقوى، وبُعد النظرِ وفصاحَةِ اللسانِ وحُسْنِ التَدَبُّر.

➢وهي تفيدُ بأنّ الله تعالى يُحيطُهُ بالمحبةِ الخالصة، فيكونُ أهلاً للنبوةِ اللاحقة، وأنَّ الله تعالى سيُعطيه الوسائلَ الخاصة التي تُمَكِّنُهُ مِنْ إتمامِ مُهِمَّتِهِ.

المحور الثاني: في قولِه تعالى: ﴿ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأْويلِ الأحاديث﴾.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿ويُعَلِّمُك﴾ وما أجْمَلَها مِنْ كرامةٍ أغْدَقَ بها الله تعالى على يوسفَ عليه السلام، أنْ تَكَفَّلَ بتعليمِه. فهو لم يُحِلْهُ إلى أبوابِ التعلُّم التي يَعْرِفَها البشر، ولم يَجْعَلْ له مُعَلِّماً مخصوصاً يُعَلِّمُه، بل شاءَ الله تعالى أَنْ يُلْقِي في قلبِه منَ العلومِ الإلهيةِ الخالصةِ التي لا طَريقَ للشيطانِ إليها، وتلك عِصْمةٌ جوهريةٌ في نوعيةِ العلومِ التي اختَصَّهُ بها، فما حدَثَ يوماً أنْ أخطأ في استعمالِ العلمِ الذي أعطاه الله تعالى.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿ويُعَلِّمُكَ منْ تأويلِ الأحاديث﴾**، وحين يَخُصُّ الله تعالى نوعاً منَ العلوم بالذكْر، ويجعلُ تعليمَها لنبيهِ الكريمِ أحَد معالِم فضْلِه عليه، فإننا نفْهَمُ بأنها مِيزةٌ عظيمة، تُوازِي مُعجزاتِ الرُّسُلِ..

ولنتوقَّفْ قليلاً عندَ مدلولاتِ تعليمِ تأويلِ الأحاديث:

فالرُّؤَى لغةٌ خاصةٌ غامِضة، ما أَلِفَ الناسُ فِقْهَهَا، إذ إنها تخرجُ عن ضوابطِ اللُّغاتِ المَحكِيَّةِ أو المكتوبة، وتكونُ لا إرادية، يتَلَقّى الرّائي خلالَ نومِه معلومةً تكونُ مُشَوّشَةً، أو صعبةَ الربطِ بواقعه المُعاش. إلا أنها لا تخْرُجُ عَنْ مجموعِ المُكْتَسبات لديه، من حيثُ فَهْمُ المصطلحات الواردةِ فيها، وإنْ كانَتْ غيرَ مُترابطة.

وينبغي للمتصدِّي لتأويلِ الأحاديث، أنْ تتوفَّرَ فيه شروطٌ جمَّة، صعبةٌ ومعقدة، منها ما هو مُكتسبٌ بالتعلُّم، ومنها ما هو مِنْ صفاتِ شخصيته، ومنها ما هو مِنَّةٌ وتمْييزٌ ربانيٌّ عَنْ أقرانِه منَ البشر:

➢أمَّا التعلُّم، فهو يَقْتَضِي معرفةً عميقةً بمعاني الأشياءِ ومبانيها ومدلولاتها ومرونة الربطِ فيما بينها، وسعةَ اطلاعٍ، وثقافةً عالية، وإلماماً بمُجْرياتِ الأحداثِ وتطوراتِها، ودرايةً في علومِ الاجتماعِ والتاريخِ والفَلَك، وعلومِ الطبيعةِ والحيوان..

➢وأمَّا الصِفاتُ الشخصيةُ، فأوَّلُها الصِدقُ والإخلاصُ والصَلاحُ والتُّقَى، ومراقبةُ الله تعالى في السر والعلن، ومحاسبةُ النفسِ الدائمة، وإرادةُ الخيرِ، وعدمُ إفشاءِ الأسرارِ، وعدمُ استخدامِ المعلومةِ المعطاةِ فيما يضُرُّ مَنْ أعطاها، وأنْ يتمتَّع بشخصيةٍ قويةٍ، تحمِلُ طالِبَ التأويل على الثقة به، وأنْ يكونَ واضح الرؤية، واضح المنْطِق بعيداً عن الغموضِ، بعيداً عن الكِبْر، غيرَ جشِعٍ ولا بخيل، زاهداً بما في أيدي الناس، قريباً منَ الله تعالى، يرجو رَحمته.

➢وأمَّا ما هو مِنَّةٌ وتمييزٌ رباني، فهذه صفةٌ لا يد للبشرِ فيها، يتفضَّل بها الله تعالى على بعض عبادِه، فهي من نوعِ الموهبةِ في حقِ الناس العاديين، وهي مِنْ نوع المعجزة، في حق الأنبياء والرسل، يعصمهم الله تعالى بها مِنْ وساوسِ الشيطان. فلا تتدَاخَل معَ الاجتهاد الصحيحِ في التأويل.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأْويلِ الأحاديث﴾** فلم يقُل الله تعالى من تأويلِ الرُّؤَى، ولا منْ تأْويلِ الأحلام، والناسُ في أيامِنا يُحِبُّونَ عبارةَ الأحلام. فجاءَتْ عبارةُ الأحاديثِ في هذه الآية، لتحمل مدلولاتٍ واسعة:

فهي أولاً، تُطْلَق على الرُّؤَى، وهذا هو المقصِدُ الأوّلُ من معانيها، في الآيةِ الكريمة، لورودِها مباشرَةً بعدَ رؤيا يوسفَ عليه السلام.

وهي تُطْلَقُ على مجملِ الكلام، فتكونُ جمعاً لكلمةِ «**الحديث**».

المحور الثالث: في قولِه تعالى: **﴿ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوب﴾**.

وفي هذا الشطرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿ويُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليك﴾**. وهذه أعلى درجاتِ إكرامِ الخالقِ سبحانَه وتَعالى لعبدٍ مِنْ عبادِه، بأَنْ يُتِمَّ نِعْمَتَه عليه، وأيُّ نِعمةٍ تُوازِي إتمامَ النِعمةِ عليه؟ فهو بهذا في صونٍ ورعاية، وهناءٍ وطُمأْنينةِ بال، وحفظٍ كاملٍ من وسَاوُسِ الشيطانِ ودهائه ومَكائِده، وحفظٍ منَ المكارِه والمهالِك.

ومن أوْجهِ النعمِ العُليا عليه:

➢عدمُ الانقِياد لما يَنْقَادُ إليه الناسُ منَ السقَطَات والهَفَوات بالجوارحِ واللسان، فلا يجِدُ الشيطانُ إليه سبيلا..

➢ومنها إلقاءُ السّكينةِ في قَلْبِه، فلا يَخَافُ منْ شيء، ولا يَخافُ على شيء، مُفَوِّضاً أمرَهُ إلى الله تعالى، متوكلاً عليه.

➢ومنها تمييزُه بجِماعِ العِلْمِ الذي يَحتاجُ إليه في عصْرِه، وحِفْظُ هذا العِلمِ منْ تَدَاخُلِ الشيطانِ فيه. فلا يُخَرِّبُه عليه، ولا يَسْتَعْمِلُه فيما لا يُرْضِي الله تعالى، ولا تأْخُذُه العِزَّةُ فيقول: إنما حَصّلْته أنا بنفْسِي، ولا يقولُ إنما أُوتيتُه على علم عِنْدي.

➢ومنها الحصولُ على رضى الله تعالى، وتلك هي ذُروةُ إتمامِ النِّعمةِ الكُبرى. ما أنعم الله تعالى بها على عبدٍ إلا نجا.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿ويتِمُّ نِعمتَه عليكَ وعلى آلِ يعقوب﴾**. وفي هذا الشطرِ منَ الآية، إعلامٌ غيبيٌ قد يُدْهشُ له المستمع: فها نحن في أَولِ السورة، وفي بدايةِ القِصَّة، وهي تدورُ حولَ ما سيُحِلُّ بيوسفَ عليه السلام من جراءِ تآمرِ إخوتِهِ به، فإذا بمشَاعِرِنا تحتشدُ ضِدّهُم، ويَحْصُلُ في نفوسِنا نفورٌ منهم، وممّا يعتزمُونَ فِعْلَه، فإذا بالآيةِ الكريمةِ، حتى قبلَ أنْ نصِلَ إلى سماعِ ما سيَبْدُرُ فِيهُم، تُعْلِمُنَا بأنّ الله تَعالى سيتِمُّ نِعْمَتَهُ على آلِ يعقوبَ أيضاً. ومَنْ هُمْ آلُ يعقوب؟ ما هُمْ بالنتيجةِ، سِوى يوسف وإخوتِه بالدرجة الأولى.

وهذا الاستباقُ نستَخْلِصُ منه العِبَر التالية:

أوّلاً: أنه يُفَسِّرُ لنا قَبولَ يعقوبَ عليه السلام، تصَرُّفَ أبنائِه العشرةِ حِيالَ يوسفَ وأخيه، وصَبْرَهُ على أذاهم لهما.

ثانياً: أنه يَمْنَعُ يوسفَ من أنْ يَكْرَهَ إخوتَه، وقد جاءَ الإعلامُ بأنهم سيصطلحون.

ثالثاً: أنّ العبرةَ في الأُمورِ بخواتِيمها، وأنّ العبرةَ في الصلاحِ هو أَنْ يكونَ آخرَ الأعمال، وإن العبرةَ بالنَجاةِ أنْ يكونَ الإيمانُ آخرَ أعمالِ العبدِ في دنياه.

رابعاً: يجبُ عدمُ اليأسِ مِنْ صلاحِ إنسانٍ مَهْمَا اشتَدّ أَذاهُ وقَسا قلبُه، فَرُبَّ فاسِقٍ عائثٍ في الأرض فساداً تحَوَّلَ إلى الإيمانِ والصلاح بمشيئةِ الله تعالى له ذلك.

ثم تنتهي الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: **﴿كما أَتَمَّها على أَبويك من قبلُ إبراهيمَ وإسحاقَ إنَّ ربَكَ عليمٌ حكيم﴾**.

وبهذا الشطرِ منَ الآية، يكتملُ شَرَفُ الإلحاقِ بالمُصْطَفَيْنَ منَ الإنسانية، بأَنْ رَفَعَهُ الله تعالى إلى مَرْتَبةٍ عظيمةٍ جداً، وما وُرُودُ اسمِ إبراهيمَ عليه السلام، إلا دلالةٌ على إتمامِ فضلِ الله تعالى على يوسفَ عليه السلام. فإبراهيمُ هو خليلُ الرحمن، وهو الجدُ الأوّلُ ليوسف. فتلكَ أُمةٌ بعضُها مِنْ بعض، ذُريةٌ مؤمنةٌ صادقة. صَدَقَتِ الله ما وعَدَته، فرفَعَها واصْطَفَاها. ومِنْ ذُريةِ إبراهيمَ عليه السلام، خرَجَ سيدُ الأنام، رسولُ الإنسانيةِ جمعاء، محمدٌ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، جَمَعَنا الله تعالى بهم جميعاً آمين.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن علامات رضى الله تعالى تأتي من محاور متفرقة، وكلما ازدادت هذه المحاور، كانت علامات الرضى أوثق. ونضرب المثل بيوسف عليه السلام وقد أكرمه الله تعالى بمحاور ثلاث: الحفظ والصون، الإصطفاء والتمييز بأحد العلوم، وإتمام النعمة ونذكر الآية الكريمة.

٢ - للدلالة على أن الجد وإن علا فهو يسمى أيضاً أب ونذكر قول الله تعالى: كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٥]

إذا تأمّلنا، أخي المؤمن، في هذه الآية، بعدَما تأمّلنا الآياتِ السابقة، نجدْ أنَّ قِصّة يوسفَ عليه السلام تبدأ في الحقيقة مِنْ هنا، وما الوقائعُ التي عَلِمْنَاهَا في بَدْءِ السورة، إلا تحْضيراً وتعريفاً بأشخاصِ القصةِ ورِجالاتها، ومواقِعهم وعلاقتِهم فيما بينهم، والجوِ العامِّ الذي كان يسودُ بينَهم، ومعرفةِ المكانةِ التي حصَلَ عليها يوسفُ عليه السلام، وما سيكونُ له مِنْ مَلَكَاتٍ ومَواهِب سيستعْمِلُها في سياق القِصة، ولا بد لنا قَبْل المضِيِّ في تأمُّلِ الآياتِ الكريمةِ منَ الوقوفِ عندَ مُلاحظاتٍ هامة، تَدورُ حَوْلَ سُورةِ يوسف.

الملاحظة الأولى: أنَّ قِصّة يوسفَ عليه السلام، لم تُذْكَرْ في القرآنِ الكريم إلا مرةً واحدة، وبالتفصيل الكامل، وأُفْرِدَت لها سورةٌ كاملةٌ طويلة، لم نَجِدْ فيها موضوعاً آخرَ غيرها، بخلافِ السورِ الباقية، وبخلافِ قصَصِ الأنبياءِ والرُّسُلِ الآخرين، الذين توزّعَتْ قِصَصُهم في سورٍ متعَدِّدة.

الملاحظة الثانية: أنها سورةٌ مَكِّيَّة، رُغْمَ أنه يَغْلِبُ عليها الأسلوبُ الهادىء المُحَلِّلُ لأحوالِ الناسِ ونفسياتهم. وهذا الأُسلوبَ نراهُ غالباً في السورِ المدنية، أمّا السورُ المكية، فيَغْلِبُ عليها طابعُ الآياتِ القصيرةِ، والسورِ القصيرةِ ذاتِ الوقْعِ الشديدِ، والوتيرةِ العاليةِ الزاجرة. حتّى قِصَصُ الأنبياءِ الواردةُ في السورِ المكيّة، تتميَّزُ بالآياتِ القصيرةِ المتسارعة.

الملاحظة الثالثة: أنّ مضمونَ السورةِ يتناوَلُ إخباراً غيبياً وبتفصيلٍ مُدْهِش،

عنْ أحداثٍ حصَلَتْ في زمنٍ بعيدٍ جداً عنْ زَمنِ السَرد، وفي بيئةٍ مختلفةٍ ومكانٍ بعيدٍ جداً، تُسرَدُ على قومٍ لم تَدْخُلْ هذه القِصةُ في ثرْوتِهم الأدبيةِ المتناقلةِ عَبْرَ العصور، ولم يُوجَدْ فيهم مَنْ يَرْوِي لهم قَصَصاً مُشَابِهاً.

ومِنْ أجلِ فَهْمِ سببِ نزولِ هذه السورة، في هذا التوقيت، نعودُ إلى ظروفِ حياةِ الرسولِ الكريمِ قبلَ نُزولِها مباشرة:

فهو في مكةَ المكرمة، يدعو الناسَ إلى الإيمانِ فيُعْرِضون، يَدْعُوهم إلى الهُدى فيُؤْذونَه، يُضيِّقون عليه الحِصار، يمنعونَهُ منَ الناسِ ومِنَ النُّصْرة، وإذا بالأحزانِ تَتوالَى عليه، فيموت عَمُّهُ أبو طالب، وتموتُ زوجُه خديجةُ بنتُ خويلد، عليها رضوانُ الله تعالى، وتشْتَدُّ الأَزمةُ بتعذيبِ أَصحابِه المؤمنينَ برسالتِه، وتصلُ أصداءُ الدعوةِ واضطهادُها إلى القُرى والمدنِ المحيطة، ويعلمُ اليهودُ في المدينة المنورةِ بخبرِ الرسالة، فيُرْسِلُونَ إلى أهلِ مكة أَنْ سَلُوهُ عن رجلٍ منَ الأنبياءِ كان بالشام، أُخرِجَ ابْنُه إلى مصر، فبَكَى عليه حتى عَمي؟ في محاولةٍ لتسْفِيه أقوالِه، يقيناً منهم بعدم عِلْمِه بخَبَرِه.

في هذه الظروفِ الشديدةِ القَسْوَة، شاءَ الله عزّ وجَلّ أَنْ يُلْقي السكينة في قَلْبِ رسُولُه الكريم، فأنزلَ سورةَ يُوسف، وفيها عزاءٌ وسلوى وتثبيتٌ، وسنجدُ حلاوةَ ما فيها معَ تأَمُّلِ الآياتِ التي ستلي منَ السورة، لكننا نقِفُ الآنَ معَ معنى قولِه تعالى في الآية موضوعِ تأمُّلِنا اليوم: **﴿لقد كان في يوسفَ وإخوتِه آياتٌ للسائلين﴾**.

والسائلون كُثُرْ:

فهناك السائلون في زمنِ الرسولِ الكريمِ محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، الذين أَتَوْا ليمتَحِنُوه ويتَحَقَّقُوا صِدْقَه، بأنْ سألُوهُ سُؤالاً صَعْباً مُعْجِزاً، لا يقْدِرُ إنسانٌ في بيئتِه وموقعِه وأُمِّيته أنْ يُجيبَ عنه، فإذا بالإجابةِ لا تكونُ

عادية، ولا تكونُ مُقْتَضَبةً، ولا تكونُ مُتَعثِّرَةً مُتَلَعثمة، ولا تكونُ غامضةً على طريقةِ الكَهنةِ والأحبار، بل تكونُ آياتِ بيناتٍ مُفصّلات. فيها الوضوحُ والجلاءُ، والجمالُ البياني، والإعجازُ اللُّغوي، ومُتْعةُ السرْد، وبلاغةُ القَصَص، وتَثبيتُ الموقف، ودَحْضُ المزاعمِ والافتراءَات.

وهناك السائلونَ الذين أَتَوا بعدَ زمنِ الرسولِ الكريم محمدٍ ﷺ، الذين جاؤوا ليقارِنوا النُّصوصَ ويتحرُّوا الفُرج، متسلِّحينَ بنُصوصِ العهد القديم، فإذا بهم يُدْهَشُونَ من صلابَةِ مَتْنِ القِصةِ القرآنية، وضَعْفِ وتفَكُّكِ القِصَصِ التي عبَثَتْ بها أيدي البشر، في النصوصِ الأُخرى، وقد خَرَجَ فيهم مُنْصِفون، فاعترفوا بأَنّ القِصَة في القرآن أوْضَحُ وأمتنُ وأصدقُ ممّا سواها، مِصداقاً لقولِه تعالى: ﴿**ومَنْ أصْدَقُ منَ الله قيلا**﴾[1]، وقولِه تعالى: ﴿**إنّا نحنُ نَزّلْنا الذِكْرَ وإنّا له لحافِظُون**﴾[2].

وهناكَ السائلونَ المُحْدَثون، المتبحِّرون في عُلومِ النفسِ الإنسانيةِ الذينَ أَتَوْا ليضَعُوا قواعدَ علْمِ النفسِ الإنساني، فانطلقوا مُتخبِّطينَ متعثِّرينَ، يضعونَ النظرياتِ والاحتمالات، ويعتمدونَ قواعدَ ويفْرِضُونها على الناس، ثم لا يَلْبَثُون أنْ يَنْقُضُوها، إذْ يتبينون عدمَ صلاحِها، ولو أنهم تأمّلُوا سورةَ يوسفَ عليه السلام، لوَجَدُوا فيها جِماعَ عِلْمِ النفسِ بكاملِه، ما عرَفُوه وما اسْتُغْلِقَ عليهم، وهذا فهمٌ آخرُ لمعنى قولِه تعالى: ﴿**لقد كانَ في يوسف وإخوته آياتٌ للسائلين**﴾.

---

(١) [سورة النساء، الآية: ١٢٢].

(٢) [سورة الحجر، الآية: ٩].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية

١ - للدلالة على حصول تواطؤ بين الأخوة وتألب بعضهم على بعض وهذا كثير الحدوث، فذكر الآية في موضع الحديث عن هذا التألب يؤكد على هذا الطبع من طبائع النفس البشرية.

٢ - للدلالة على أن اللسان يفضح ما تضمر الأنفس من مشاعر وذلك حين قالوا: «ليوسف وأخوه»، مع أنهم كلهم أخوة.

ثم يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٦]

إنَّ تأمُّلَنا لهذه الآيةِ أخي المؤمن، يقودُنا لمعرفةِ خَلْفِيَّةِ علاقةِ الإخوةِ فيما بينهم، مما سيُوضِحُ لنا فَهْمَ موقفِ إخوةِ يوسفَ منه: فبعد أن أنجب يعقوبُ عليه السلامُ أولادَه العشَرة، الذين يكْبُرون يوسف، تزوَّجَ من امرأةٍ أنجبت له يوسفَ وأخاه الأصغر.. لكنّ أمهما ما لبثت أن توفيت.

فأصبحَ يوسفُ وأخوه يتيمي الأُم وهما لا يَزالانِ طِفلين صغيرين، فما كان من يعقوبَ إلا أنْ سَعَى لتعويضِهما فَقْدَ حَنانِ الأُم بالعطفِ عليها والذَوْدِ عنهما، وتلك واحدةٌ مِنَ الخِصالِ الحميدةِ التي ينبغي أنْ تكون مثلاً يُحتذَى بين الناس، بوجوبِ نُصْرَةِ الضعيفِ وأخذِ الحقِ له حتى يَقْوَى، ويُصْبِح قادراً على حِفْظِ حَقِّه بنفسِه.

هذا الواقعُ لم يَفْهَمْهُ إخوةُ يوسفَ جيداً، بلِ اعتبروه تمييزاً له عنهم،

وصاروا يُحصُون على أبيهم مواقِفَهُ منهم، ويقارِنونَ حِرْصَهُ على يوسفَ وأَخيه، ورعايتَه الدائمةَ لهما، بمعاملةٍ عاديةٍ، يُقابلهم بها.

وفي غالبِ الأحيان، يمرُّ بناءُ الموقف من شخصٍ ما، بمراحِلَ عدة:

المرحلة الأولى: مرحلةُ التأمُّلِ والنظر، فيتمُّ تسجيلُ التَصَرُّفِ في طياتِ الذاكرةِ دونَ أنْ يُفْصَحَ عنه إلى العلن.

ثم تبدأُ مرحلةُ التجميعِ للمواقفِ المخْتَزَنة، وتنسيقُها وترتيبُها، للوصولِ إلى خُلاصةٍ تدْفَعُ إلى بناءِ فكرةٍ مُعَيَّنةٍ عَنْ خَلْفِيَّةِ التصرفات.

ثم تَصِلُ إلى مرحلةِ الترقُّبِ للتصرُّفاتِ اللاحقة، وما إذا كانتْ سَتحْصُلُ في اتجاهِ الفكرة ذاتها التي تمّ التوصُّلُ إليها سابقاً.

وعند حصول اليقين، يبدأُ الفِكْرُ الخاصُّ بالتدخُّلِ في حَبْكِ النَّسِيج حَوْلَ تمتينِ النتائِج، وإضافَةِ معانٍ جديدةٍ يسْتَمِدُّها صاحبُ الفِكرةِ منْ خيالِه، ويَدخُل عليها الشيطانُ بوَسَاوُسِه بقوة، عندها يبدأُ الإفصاحُ عن الفكرةِ إلى العَلَن، إمّا أذيةً قولية، أو أذِيَّةً فِعلية.

لقد وصَل إخوةُ يوسفَ إلى هذه المرحلة، فأفْصَحُوا بقولِهم: ﴿**ليُوسُف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منا ونحن عُصْبة إنّ أبانا لفي ضَلالٍ مبين**﴾.

وفي الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: ﴿**إذْ قالُوا لَيُوسُف وأَخوه أحبُّ إلى أبينا مِنّا**﴾ وهنا نَجِدُ رُغْمَ تحامُلهم على يُوسف، إشارةً إلى حُبِّ أبيهم لهم، لكنَّ مَأخَذَهُمْ هو على المُفاضَلة. وهم بذلك لا يخْرُجونَ عن طاعةِ أبيهم، ولا يُعلنون العِصيانَ له، بل يقِفُونَ في مآخِذِهم عند حُدودِ العلاقةِ معَ يوسفَ عليه السلام، وفي هذا أدبٌ صاغَتْهُ العبارةُ الجميلة: ﴿**أحبُّ إلى أبينا مِنّا**﴾.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: ﴿**ونَحنُ عُصْبة**﴾ وهنا دلالةٌ على غِنى اللُّغةِ العربيةِ بالمعاني والمباني. فإلى جانبِ الأرقامِ التي تعْرِفُها كلُّ اللغات، تنفَرِدُ العربيةُ بتعابيرَ خاصةٍ بعددِ الأشخاص في المجموعة. فنجدُ مثلاً كلمةَ نفَرٍ للتعبيرِ عنِ العددِ حتى الثلاثة، ونجدُ كلمةَ رَهْطٍ للتعبيرِ عن العددِ حتى تسعة ونجدُ كلمةَ عُصبةٍ للتعبيرِ عن العددِ عشَرَة وما فَوْق، وتلك مِيزةٌ لا نَجِدُها في أيةِ لغةٍ أُخرى، ومقتضيات التعبيرِ الأدبيِّ تَحتاجُ إلى مثلِ هذه المعاني، فانْظُرْ أخي المؤمن إلى جمال اللغةِ العربية، واعْمَلْ على تدَبُّرِه.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبين**﴾.

هنا أيضاً اللطيفةُ لغوية: فإنّ كلمةَ ضلال، تُستعملُ على معانٍ مختلفة، وبمستوياتٍ مختلفة، بحسب توجُّه النصِ الذي احْتَواها.

فلقد تحْمِلُ معنًى شديداً جداً، إلا وهو الكُفرُ والعياذُ بالله، كمثل قولِه تعالى في سورة الرعد: ﴿**وما دعاءُ الكافِرين إلا في ضلال**﴾[1] أو كقولِه تعالى في سورة الزُّمر: ﴿**فويلٌ للقاسية قلوبُهم مِنْ ذِكْرِ الله. أولئك في ضلالٍ مبين**﴾[2].

ولقد تَحْمِلُ معنًى أقلَّ شدَّة، ألا وهو عدمُ معرفةِ الطريقِ الصحيح، كمِثلِ قولِه تعالى في سورةِ يوسف: ﴿**وقال نِسوةٌ في المدينةِ امرأة العزيزِ تُراوِدُ فتاها عنْ نفْسِه قَدْ شَغَفَها حُباً إنّا لنراها في ضلالٍ مبين**﴾[3].

ولقد تَحْمِلُ معنًى أقلَّ شِدّةً أيضاً، وهو عدمُ اختيار الأنسبِ معَ صحةِ

---

(١) [سورة الرعد، الآية: ١٤].

(٢) [سورة الزمر، الآية: ٢٢].

(٣) [سورة يوسف، الآية: ٣٠].

العمل وهذا المعنى هو المقصودُ في هذه الآية. حين قالُوا عن أبيهم: **﴿إنّ أبانا لفي ضلالٍ مُبين﴾**.

ولقد تَحْمِلُ أخيراً معنًى غيرَ مَذْمُوم، كمثلِ قولِه تعالى في سورةِ البقرة: **﴿أنْ تَضِلّ إحداهُما فتُذَكِّرَ إحداهما الأُخرى﴾**[1]، أي: أنْ يُصيبَها السهو أوِ الخطأ.

ولا يَفُوتُنا أنْ نتأمَّلَ في الآيةِ الكريمةِ، لنستخلصَ منها العبرَ النفسية التالية:

أولاً: رُغْمَ اجتهادِ الآباءِ في التربيةِ الصالحةِ لأبنائهم، إلا أنه مِنَ الممكنِ أنْ يَخرج منهم منْ تَغْلِبُ عليه الشِّدّة، ويجبُ الاستمرارُ في الإصلاحِ.

ثانياً: ليس كلُّ ما يُعَبِّرُ عنه الأبناءُ في الظاهر أمام آبائِهم، هو ما يُضْمِرونَ من حقيقةِ مشاعرِهم، وعلى الآباءِ أنْ يَقْرأُوا في الأعْمالِ لا في الأقوال.

ثالثاً: ليسَ كلّ ما تكَاثَرَ الناسُ على اعتبارِه صحيحاً، هو الصحيح، فلقدِ اجتمعَ عشرَةٌ منْ أبناءِ يعقوبَ عليه السلام، على فكرةٍ خاطئة، وهم يَظُنُّونَ فيها الصّواب. فالعبرة في تحكيمِ الشرعِ والعقلِ والمنطِق في الحكمِ على الأُمورِ، لا على حَمَاسِ العامةِ واندفاعِهم.

رابعاً: يجبُ عَدَمُ التسرُّعِ في الحكمِ على الأُمور لأول سبب عارض، بل يجبُ أخذُ الاحتمالات الأُخرى بعين الاعتبار وتفحُّصُ الاحتمالات المعاكسةِ التي قد تكون أصوبَ قبلَ اتخاذِ القرارات، وغالباً ما يَكْمنُ الشيطانُ خَلْفَ التسرُّعِ في الأُمور.

---

(١) [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢].

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الأبناء قد يأتمرون بوالديهم، رغم اهتمام الوالدين بحسن التربية وظنهم أنهم قد أدوا ما عليهم، وذلك لحث الناس على أن يكونوا أكثر قرباً من أبنائهم.

٢ - لإعادة استعمال كلمة عصبة في الحياة اليومية للإشارة إلى المجموعة من الأشخاص التي يزيد عددها عن عشرة.

ثم يقول الله تعالى على لسان أخوة يوسف:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج:٧]

وكنا قد علمنا فيما سَبَقَ من الآيات، كيفَ أنَّ إخوةَ يوسفَ قد ظَنُّوا من محبةِ يعقوبَ عليه السلامُ لابنيه الصغيرين، يوسفَ وبنيامين، إيثاراً منه لهما عليهم. وكيفَ أنهم بدأوا يأتمِرون بهما، وتلك كانتِ الأحداث التمهيدية للقِصة. وها نحن ذا نجدُ أنفسَنا مباشرةً في صُلْبِ الأحداثِ التقريرية، في قَفْزٍ بديعٍ فوقَ التفاصيل، لتتصَاعَد وتيرةُ الوَقائعِ، وترتفعَ حرارتُها، ما يشدُّنا إلى خُطورةِ الحوارِ الذي يَجْري بينَ إخوةِ يوسف، فإذا بنا نستمعُ إلى الشطْرِ الأوَّلِ من الآيةِ بقولِ أحدِهم: **﴿اقتُلوا يوسف﴾**.

ولنا وقفةٌ عندَ هاتين الكلمتين، لما تَحْمِلانِ من مَدلولاتٍ نفسيةٍ عميقة:

فهذا أولاً، اقتراحٌ خطيرٌ جداً بقتل نفسٍ بريئةٍ بغير نفس، ما كانَ لمقترحِه

أنْ يقولَ به، لولا غَلَبَةُ الشيطانِ عليه في هذه اللحظة، وهو يُعَبِّرُ عن أمورٍ عديدة، تفاعَلَتْ فيما بينها، وأنتجَتْ هذا الاقتراح.

فهو يُعَبِّرُ عنْ شِدّةِ الكُرهِ والغَيظِ التي أعمتِ القُلُوب والأبصار، وحَجَبَتْ معاني الحُبِّ والوِدادِ عنِ البصائر، فكَمْ مِنَ المواقف التي يقِفُها الإنسانُ متأثراً بما حلَّ بإنسانٍ آخرَ تَرْبِطُهُ به روابطُ الصّداقة، كأنْ يقعَ في مأزِقٍ مالي، أو عارضٍ صِحي، أو أنْ يراهُ يتألّم، فإما أنْ يُسْعِفَهُ بما أُوتيَ مِنْ قُدُرات، وإما في أقَلِّ تقدير، أنْ يشْعُرَ بالأسى في داخلِه لما أصَابَه. فكيفَ إذا كانَ المتألِّمُ أو المُصابُ أخاهُ. الألَمُ أكْبَرُ وأشَدُّ، إلا أنّ تصاعُدَ الكُرْهِ والحسَدِ بتضعيفِ عالٍ، معَ وَسْوَسَةٍ كثيفةٍ منَ الشيطان، حجبتْ كلّ مشاعِرِ الأُخُوّة والحُبِّ الأخوي.

وهو يُعَبِّرُ عنِ استهانةٍ بالروحِ البشَرِيّة. وإدراكُ قيمةِ الروحِ البشرية، يَنْبُعُ من فهمِنا للأهميَّةِ القُصْوَى لهذه الروح، عندَ الله تعالى. ومن ذلك، ما نقرأ في سورةِ المائدة قول الله تعالى: **﴿أنه مَنْ قتَلَ نفساً بغيرِ نفسٍ أو فسادٍ في الأَرض فكأنما قتلَ الناس جميعا ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً﴾**[1].

فتلكَ كبيرة منْ أعظمِ الكبائرِ وأشدِّها، وما وصولُ أحدِهم إلى هذا الاقتراح، إلا دليلَ غلبةِ الشيطانِ الكاملةِ عليه في هذه اللحظة.

ويَبْلُغُ القُبحُ في هذا الاقتراحِ مداه، حينَ نُمْعِنُ النظرَ في موضوعِه: فموضوعُه الأخ وليس شخصاً غريباً، وهذه هي الإشارةُ القرآنيةُ الأُولى لملاحظةٍ أساسيةٍ في عِلْمِ النفس: أنَّ وَسْوَسَةَ الشيطانِ هي أشَدُّ ضراوةً، وأعْلَى في حقِّ الإخوة، مما هي في حق الآخرين، وهي حقيقةٌ واقعة نلْمَسُها في حياتِنا اليومية: فكم عديدةٌ هي العداواتُ بين الإخوة وحتى بين الأشقاء!! وحين تقع، فهي أشدُّ فتكاً وأبلغُ إيذاءاً، تجُرُّ الويلاتِ على العائلات، جيلاً بعدَ جيل،

(١) [سورة المائدة، الآية: ٣٢].

وينبغي أنْ يُشارَ بالبَنَانِ دائماً، إلى هذه الأُمور، عندَ تربيةِ الأولاد. فما أمكنَ التحذيرُ منه عندَ الصِغَر، يُمْكِنُ تجَنُّبُ وقوعِه حالَ الكِبَر.

أمَّا القمة في قُبحِ الاقتراح، فنُدْرِكُها حينَ نَعْلَمُ أنَّ مَنْ يأتَمِرُونَ به، يُريدُون قَتْلَه، هو طِفلٌ صغير، لم يَبلُغ أشَدُّه بعد، لا يقْدِرُ عن نفسه دفاعاً، ولم يَجْتَرِحْ عملاً يُوجِبُ القِصاص، ولا عُرِفَ عنه سوءَ الخُلُق. ولا هو بالعالةِ عليهم. فإنَّ النفوسَ لتُصابُ بالحزنِ حين تعْلَمُ عن موتِ طفلٍ بسببِ مرضٍ أو حادث، فكيفَ إذا عَلِمَتْ أنَّ شخصاً عاقلاً بالغاً متمكِّناً، قصد قتْلَ طفلٍ عَنْ سابقِ تصَوُّرٍ وتصميم؟ إنها لجريمةٌ بشعة، ولا يزالُ الإنسانُ حتى يومِنا هذا، في جُنوحِ شرِّيرٍ عن إنسانيته، تحتَ تأثيرِ وسْوَسَةِ الشيطانِ له، يُقْدِمُ على قتلِ الأطفالِ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبها، ومَنْ فرَّ مِنْ عدالةِ الإنسان، فلا مَفَرَّ له يومَ الدينِ مِنْ عدالةِ الله تعالى.

﴿اقْتُلوا يوسفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرضاً﴾.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في الصيغة التي وَرَدَتْ على لسانِ صاحبِ الاقتراح: فهو لم يقُلْ: سأقْتُلُ يوسف، أو فلْنَقْتُلْ يوسف، بل قال: أُقْتلُوا يوسف، فهو أولاً، أحالَ اقتراحَهُ على المجموعة، ثم تنصَّل مِنْ ذِكْرِ نفسِه معهم، لشِدَّةِ الاقتراحِ وجسامته.

اللطيفة الثانية: في التدرجِ التخفيفيِّ في الأفكارِ، للتخلُّصِ من يوسفَ عليه السلام: فحين قَدَّمَ اقتراحَ القتل، سارَعَ إلى نفيه باقتراحِ أقلَّ فظاعةً حين قال: أوِ اطْرَحُوهُ أرضا، أي ألْقُوهُ بعيداً عنِ الأرضِ التي هو فيها، دونَ أنْ تَقْتُلُوه، وفي هذا الاقتراح، احتمالُ القبولِ أكْثَر لدى الإخوةِ المجتمعينَ للتآمر.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: **﴿أو اطْرَحُوهُ أرضاً﴾** ففي انتقاءِ الصِيَغ، تلميحٌ مُبَطّنٌ لدرجةِ الحُبِّ أو الكُرهِ الذي نعاينه، لشخصٍ ما. فحين تنقُلُ شخصاً ما بسيارتك، وتُريدُ إيصالَهُ إلى مكانٍ معين، يُمْكِنُكَ أنْ تقول: يُسْعِدُني أنْ أوصِلَ جَنابَكُمْ إلى المكانِ الفلاني، أو أنْ تقول: أضَعُكَ في المكانِ الفلاني، أو أن تقول: أطْرَحُكَ في أرضِ كذا، وهذا بعضٌ مِنْ مَعالِم غِنى اللغةِ العربيةِ في تعبيرِها عنِ المشاعرِ بالألفاظِ المجرّدة

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿يَخْلُ لكم وجه أبيكم، وتَكُونوا من بَعْدِه قوماً صالحين﴾**.

في هذا الشَطْرِ الأخير من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في عبارةِ **﴿يَخْلُ لكم وجهُ أبيكم﴾**، كِنايةٌ تلويحيةٌ عَنْ خُلُوصِ المحبة، وكأنّ وُجودَ يوسف عليه السلام، يقِفُ حائلاً بينَ وَجهِ أبيهم وبينَ رُؤيتِهِ لهم، وتلكَ بلاغةٌ عاليةٌ لافتةٌ في الآياتِ الكريمة، التي ذَكَرْنَا سابقاً أنها نَزَلَتْ في الحِقْبةِ المكية.

اللطيفة الثانية: في قولِهم: **﴿وتَكُونُوا من بَعْدِه قوماً صالحين﴾** وتلك منْ أُمنياتِ الشيطانِ التي يَعِدُ بها الناسَ، ليكونوا له تَبَعاً، ويُقْدِمُوا على المعصية، وما فتىء الشيطانُ يُكَرِّرُ الحِيلة ذاتَها معَ الإنسانِ على مرِّ العُصور، إلى يومِنا هذا، بدعوى الصّلاحِ بعدَ ارتكابِ الجُرْمِ، تشجيعاً له على ارتكابِهِ، وما نزَلَتِ الآياتُ إلا تعليماً وتنبيهاً، والفَطِنُ منْ أخذَ منها العِبَر.

ونتوقَّفُ أخي المؤمن، عندَ الحقائقِ النفسيةِ التي نَسْتَخْلِصُها منَ الآيةِ الكريمة، ونُلَخِّصُها بالتالي:

أولاً: لا تَدَعْ رَغبتَكَ في الوصولِ إلى غاياتٍ مشروعة، تُعْمِي بصيرتَك، فتَلْتمِسْ ذلك بوسائلَ غيرِ مشروعة..

ثانياً: منْ أشدِّ الأخطارِ على النفس الإنسانية، الاستهانةُ بالأَعمالِ القبيحةِ عندَ تغْلِيفِها بالأُمنياتِ الحسنة..

ثالثاً: إنّ التصدِّي للمشكلةِ الأساسيةِ، يَحْجُبُ المشكلةَ الفرعية، فيتمُّ تَجَاوُزُها وتستفيدُ منَ الإهمالِ بعدمِ حصول الأذِيَّةِ لها. وهذا هو حالُ بِنْيَامِين، شقيقِ يوسفَ الأصغر، فعلى الرُّغْم من أَنه مُشْترِكٌ مَعَ يوسَف في نظرِ الإخوةِ في حَجْبِ محبةِ الأَبِ لهم، إلا أَنهم تجاهَلُوه، بَلْ تَجاوَزُوهُ في تآمرِهم، بتركيزِهم على يوسفَ ومصيره.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على خطورة اقتراب الشيطان الرجيم في وساوسه من الإنسان، إذ قد يصل به بسرعة إلى التفكير بقتل أقرب الناس منه، وذلك للتحذير من مغبة الوقوع في حبائله.

٢ - إستعمال عبارة: يخلو لك وجه فلان، للدلالة على حمله على الإهتمام بك.

٣ - للرد على من يقول أنه سيكون رجلاً صالحاً بعد فعل عمل قبيح يعتزم فعله، وذلك بتحذيره بأن إخوة يوسف قد سبقوه إلى هذا التفكير المتحرف الذي ما انفك الشيطان يستعمله لدفع الناس إلى ارتكاب الذنوب والآثام.

obeikandi.com

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٨]

تبدأُ الآيةُ أخي المؤمن، باستكمالِ الحديثِ الذي كانَ قد بدأَهُ إخوةُ يوسفَ وهُمْ يأتمِرُون به. فبعدَ أنْ تقَدَّمَ أحدُهم باقتراحٍ خطيرٍ جداً، يتمثَّلُ بقتل يوسف عليه السلام، ثم إعلانِ التوبةِ بعدَه، إذا بأحدِ الإخوةِ يتقدَّمُ باقتراحٍ آخَر، أوّلَ ما فيه، وأهَمُّ ما فيه قولُه: **﴿لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

يقولُ الله تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

في هذا الشَطْرِ منَ الآيةِ لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِه تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم﴾**، وفي هذه الصيغةِ جماليةٌ لغوية، تتمثلُ في انتخابِ أفضلِ أسلوبٍ لُغَوي، بأفضلِ الكلماتِ فيما يتناسَبُ مَعَ موضوعِ الكلام. فالكلامُ هنا سَرْدٌ لواقعةٍ تتَواصَلُ فصولاً معَ الآيات، في حديثٍ بينَ عدة أشخاص. والصِيغُ المطروحةُ عديدة، كأنْ تقول: قالَ أحدُهم، أو قالَ كبيرُهم، أو قالَ فلانٌ منهم. أمّا أنْ تقول: قال قائلَ منهم، فإنْ الوَقْعَ في الأُذُنِ أرَقّ، والقبول في النفوسِ أوْفَق، والتناسُقَ مُحَقّق.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿قال قائلٌ منهم﴾**، إشارةٌ أخرى إلى الإعجازِ القرآني وتفَوُّقِه على كلامِ البشر. فلو أنّ الرسولَ عليه أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم، كان يأتي بهذا الكلامِ من عنده، لكان اجتهَد على ما فُطِرَتْ عليه النفسَ البشريةُ في خصَائِصها وسُلُوكِها، في تحديدِ الأشخاصِ بدقّة، كأن يقول:

قالَ روبيل، أو قال يَهُوذا. لكنه ما هو إلا مُبَلِّغٌ عَنْ رَبِّه. وشاء الله تعالى أن لا يَذْكُر اسمَ القائل عُلُوّاً عَنْ منهجِ الناسِ في السردِ والكلام. فبلَّغَ الرسولُ الكريمُ ما جاءَهُ مِنْ رَبِّهِ بالحرف، وما أقامَ للناسِ، فيما سيقولون فيه، بالا.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: لا تقْتُلُوا يوسف. ففي ظاهرِ السِياقِ لا حاجةَ إلى ذِكْرِ اسمِ يوسفَ لاكتمالِ المعنى، وقد ذُكِرَ اسْمُه في الآيةِ السابقة إلا أنَّ إعادة ذِكرِ اسْمِه يحملُ فوائدَ عدة:

الأُولى: لُغوية، في انشراح الصدرِ بعد انقباضِه مما ورَدَ في الآيةِ السابقة، على الوقع ذاته فبعدَ أنْ سَمِعْنَا: **﴿اقْتُلُوا يوسفَ﴾**، نسْمعُ مباشرةً: **﴿لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

الثانيةُ: معنوية، فإنّ تَكْرَارَ ذِكْرِ اسْمِ يوسفَ، أمَام الإخوة، يَحْمِلُهم على استذكارِ كُلِّ ما يَحْمِلُه الاسمُ منَ النواحي الإيجابيةِ في نفوسِهم حيالَه، وقدِ التصقَ اسْمُه في أذهانِهم بمُوَاصَفاتِه، أنه: أخوهم، وصغيرٌ فيهم.

الثالثةُ: رمزية، فكما أننا لاحَظْنا أنّ المتكلِّمَ الأوَّل في الآيةِ السابقة، أبعدَ عن نفسِه شخصياً، مسألة قَتْلِ يوسف، أو الاشتراكِ القَوْلِيِّ في قَوْلِه: **﴿اقْتُلُوا يوسف﴾**، فها هُو ذَا الأخُ الثاني، الذي يَنْتَهِجُ المنهجَ ذاتَهُ في إبعادِ نفسِه قولياً، عنِ الاشتراكِ في التفكيرِ في قتلِ يوسفَ عليه السلام، فقال: **﴿لا تقْتُلُوا يوسف﴾**.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾.

في هذا الشطْرِ منَ الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في جمالِ الوصفِ القرآنِي ودقَّته، فمِنَ المعروفِ في اللغة إنَّ الجُبّ يَخْتَلِفُ عنِ البئرِ في مُوَاصَفاتِه: ذاكَ أنّ البِئرَ هي الحُفرةُ في الأرضِ التي تضُمُّ في قَعْرِها ماءً متصلاً بِيَنْبُوعٍ يُؤَمِّنُ استمرارَ تَدَفُّقِ الماءِ، أو بشريانٍ مائي يجْرِي تَحتَ سَطْحِ الأرض، وقد أَقَام الناسُ على حَوَافِّ هذه الحفرة، بناءً محيطاً بها، منعاً منَ اندراسِها.

أمّا الجُبُّ، فهي الحفرةُ في الأرضِ التي يتّصلُ قعرُها بالماء، ولكنْ لا حَواف لها عندَ السطح، فهي الركِيّةُ التي لم تُطْوَ، وسُمِّيَتْ جُبّاً لأنها قُطِعَتْ منَ الأَرضِ قَطْعاً.

أمَّا غيابَةُ الجُبّ، فهي ما غَابَ عَنْ سَطحِ الأرضِ داخَل الجُبِّ، ولكنه ارتفع عَنْ سَطْحِ الماءِ، ولم يَغِبْ فيه.

فإذا بِدِقّةِ الوصفِ القرآني، تُصَوِّرُ لنا واقعَ الخُطّةِ بكامِلِها، بكلمتين اثنين: غيابَةِ الجُبّ. فإذا بنا نَفْهَم.

إنَّ المقترح أَرَادَ التخلُّصَ منْ يوسفَ دونَ أنْ يتِمَّ قَتْلُهُ بصورةٍ مباشرة، بأنْ يُقْصَى عَنْ أبيه، وأن لا يَذهَبوا به بعيداً جداً لمشقّةِ ذلكَ عليهم، ولا يتركوه في مكانٍ قريبٍ يُمَكِّنُهُ منَ العودةِ إلى أبيه، ولا يتركوه في الفلاةِ في مكانٍ مكشوف. فإذا به يقْتَرِحُ إلقاءَهُ في البئر.

إلا أنه خشِيَ أنْ يقول: أَلْقَوهُ في البئر: فيَغْرَق، فإذا به يتَحَرّى الدِّقّةَ في موْضِعِ إلقائِه، فيقول: ﴿أَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ ما يَضْمَنُ عدمَ قَتْلِهِ مُباشرَةَ.

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿وألْقُوهُ في غيابَةِ الجُبّ﴾** في تأمُّلُنا لهذا المَخْرَجِ الذي خرَجَ به القائلُ للتخلُّصِ مِنْ يوسف.

فبعدَ أنْ توافَقَ الجميع على إلغاء يوسفَ منْ حياةِ أبيهم، وحياتِهم، وبعدَ أنْ طُرِح اقتراحُ قَتْلِ يوسفَ قتلاً مُباشراً، ثم أُقْصِيَ لفظاعتِه، جاءَ اقتراحُ إلقاء يوسف في الجُبِّ كمخرجٍ يُهَدِّئُ ضمائِرَهُم، ويشُدُّ مِنْ عَزيمتِهِم في الإقدامِ على فَعْلَتِهم. علماً بأنَّ هذا المخرَج لا يضْمَنُ سلامةَ يُوسُفَ باليقينِ القَطْعِيِّ. فإنَّ مُرُور السَّيارَةِ وَقْتَ وجُودِ يُوسُفَ في البئر، هو أمرٌ احتمالي، ولَئِنْ طَالَ مكوثه قَبْلَ مرورِ القوافلِ لقضَى جوعاً، أَوْ بَرْداً، أو فريسة السِّباعِ أو الهَوَامّ.

لكنّه في عُرْفِهم، لا يكونون هُم الذين قتلُوه، وهذا ما هَدَّأ بالهَم، وكَم مِنَ الجَرائِم والآثامِ تُرْتَكَبُ في هذه الدنيا، بصورةٍ غير مباشرةٍ، بعدَ أنْ يصِلَ مُرْتَكِبُها إلى قناعةِ عدمِ إقدامِه مُباشرَةً على الفعل. وذاكَ بابٌ منْ أبوابِ غوايةِ الشيطانِ للعباد.

ثم تنتهي الآيةُ بقولِه تعالى: ﴿يلْتَقِطْهُ بعضُ السيارةِ إنْ كُنتم فاعلين﴾.

وفي هذا الشطرِ الأَخير من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: لُغوية، في توافُقِ لفظ الالتقاطِ مَعَ ما سَبَقَها في نصِّ الآية، فحين قالَ القائلُ ألْقُوه، أتى المعنى المنشودُ ليُعَبِّرَ عَمَّا في نفسِ القائلِ منَ الرغبةِ في التخلُّصِ من يوسف، وكانَ بإمكانِه أنْ يقولَ: أنزِلُوه، أوْ ضَعوه، أو أوْصِلُوه، أو أرِيحوه، وكلُّ لفظٍ يُخْفِي شُعوراً خَلْفَه.

وكانَ بإمكانِ اللفظِ الآخر، أنْ يَكونَ مُغايراً لكلمةِ يَلْتَقِطُه، كأنْ يقول: يُنقِذُه، أو يأخُذُه، أوْ يُخرجُه، فإذا بكلمةِ يَلْتَقطه، تأتي في أدْنى المعاني، كمثلِ التقاطِ الأشياءِ الجامدة، التي لا رُوح فيها، دلالةً على صغر سِنِّ يوسف، وهذه

منْ ملاحظاتِ غنى اللغة العربيةِ بالمعاني، فضلاً عنِ المباني.

اللطيفة الثانية: في أنّ قولَه ﴿**يلتَقِطْه بعضُ السيارة**﴾ هو حدثٌ احتماليٌ غيرُ يقينيٌ في حقِّه. والحقيقةُ أنّ هذه الفكرة، هي إلهامٌ منَ الله تعالى، لأنَّ ما قالُوه حصَل. لكنْ بفارقِ أنَّ الحصُولَ هو قضاءٌ يقينيٌّ منَ الله تعالى، وأنّ الفكرة في عُرفِهم احتمالٌ قد يقَعُ وقَدْ لا يقَع. وتلك مشيئة الله تعالى، لإنقاذِ يوسفَ، وتفضيله عليهم.

ولله تعالى في اصطفائه لعبادِه وإنقاذِهم ممّا يُحاكُ لهم، قضاءٌ قد يختلفُ منْ إنسانٍ لآخر، فحين أرادَ قومُ إبراهيمَ عليه السلام حَرْقَه في النار، شاءَتْ قدرةُ الله تعالى العلية، أَنْ تنْفُذَ الفِكرةُ مِنْ ذِهْنِ القائل، إلى عامةِ الناس، ثم قاموا بتنفيذِها عملياً، فأحضروا الحَطَبَ وأشعَلُوا النارَ وألْقَوْا فيها إبراهيمَ عليه السلام، وقَضَى الله تعالى أَنْ لا تَمسَّ النارُ إبراهيمَ، لتكونَ معجزةً وموعظةً وتكريماً له.

اللطيفة الثالثة: في قولِه تعالى: ﴿**إنْ كُنتم فاعلين**﴾ وفي هذا القول، نوعٌ منْ أساليبِ الإقناع، يَكْتَمِلُ المعنى بدونِه، إلاّ أنّ إردافَهُ، فيه تشجيعٌ على اعتمادِ فكرتِه، وتحليله هو التالي: إنْ كُنتم جادِّينَ في التخلُّصِ من يوسف، فلا تتقدموا باقتراحاتٍ قد تُحْجِمونَ عَنْ تنفيذِها، كأَنْ تقتلوه بل خُذوا باقتراحِي الذي فيه إراحةٌ لضمائِركم، كما أنّ فيه ضمانَ تنفيذِ عَزْمِكُم. وقد عُرِفَ أُسلوبَ التحدِّي بينَ الناس، لدفعِ المتردِّدينَ للإقدامِ على تنفيذِ ما يَخافُون.

ولقد تأَمَّلَ أحدُ التابعين هذه الآية، ودُهِشَ لما فيها مِنْ غنىً في المعاني فقال: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم: مِنْ قطيعةِ الرّحِم، وعُقوقِ الوالد، وقِلَّةِ الرأفةِ بالصغيرِ الضرِعْ، الذي لا ذَنْبَ له، وبالكبيرِ الفاني ذِي الحقِّ والحُرمةِ والفضْل، وخطره عندَ الله، معَ حقِّ الوالدِ على ولدِه فيفرِّقُونَ بينَ الأبِ وحبيبِه على كِبَرِ سنِّهِ، ورِقّةِ عَظْمِه.

ولا يفوتُنا أخي المؤمن، أنْ نُوردَ التحليلَ النفسي الذي تُزَوِّدُنا به الآية الكريمةُ، نُلَخِّصُه بالتالي:

أولاً: إنَّ من بعضِ أساليبِ الإقناع، عدَم مُجَابَهَةِ المحاورِ مباشرةً بتسْفيهِ قولِه، بل بتقديمِ اقتراحٍ على اقتراح، ثم دعمِه بالتحدي.

ثانياً: إنّ اعتمادَ أساليبَ مُخَفَّفَةٍ في تنفيذِ الجرمِ، تُقَوِّي مَعنوياتِ المُجْرِم، وتساعِدُه على إتمامِ جُرْمِه.

ثالثاً: إنّ المقبل على ارتكابِ معصيةٍ، لا يُفَكِّرُ كثيراً في التفاصيل، إذْ إنَّ كثرَة التفكيرِ فيها، قد يردَعُه عنِ ارتكابِ جُرْمِه، وهنا يَتدخَّلُ الشيطانُ بوسوسته، لكي لا يُفَكِّرَ في التفاصيل.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - لاستعمال عبارة: قال قائل منهم، رغبة في نقل معلومة ذكرها شخص دون الحاجة إلى ذكر اسمه أو صفته لما فيها من جمالية لغوية.

٢ - للدلالة على استبدال شر بشر آخر، وكثيراً ما تحصل أحداث بين الناس، فيعتزم أحدهم الأضرار بخصمه، ثم يأتيه من يذكي أوار غضبه فيقترح عليه نوعاً آخر من الأضرار، فيمكن إسترشاد بهذه الآية لمنع حصول أي أضرار على الأطلاق.

ثم يقول الله تعالى:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٩]

ينتقلُ بنا السياقُ أخي المؤمن، مباشرةً إلى مشهدٍ آخرَ مِنَ القِصةِ، دون الإطالةِ في السرد فإذا بنا معَ يعقوبَ عليه السلام، وقد وقَفَ أبناؤه المُؤتمِرون بأخِيهم يوسفَ عليه السلام، لتنفيذ خُطةٍ مُحْكَمةٍ تَوَافَقُوا عليها، شَهِدْنا النِّقاطَ الرئيسية منها في الآياتِ السابقة، فإذا بنا معَ هذه النَّقْلَةِ السريعة، يشْتَدُّ انتباهُنا للمتابعة، إذ إنّ صلةَ الوصْلِ بين الآيةِ السابقةِ والآية الحالية، موضوعِ تأمُّلِنا، هي نحن، بما أعطانا الله تعالى مِنْ نعمةِ العقلِ، مستخدمينَ بعضَ خصائصه، ألا وهو الرّبْطُ بينَ الأحداثِ بصورةٍ بديهيةٍ تلْقائيّة، وهذه المرونةُ الذهنيةُ هي إحدى النِّعَمِ الكُبرى التي اختصّ الله تعالى الإنسانَ بها، ولولاهما لكانَتِ البشريةُ إلى الآن في حالٍ من الجمودِ والبلادةِ لا تُحْسَدُ عليها.

تُبدأ الآيةُ: **﴿قالوا يا أبَانا مَالك لا تأمنا على يُوسف﴾**

في هذا الشطرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في هذا الأُسلوبِ الجديد، الذي نتعَرَّفُ إليه باستماعِنا لطريقةِ المخاطبةِ التي اعتَمَدَها المُحَدِّث، لكي يصلَ في النهايةِ إلى مُبْتَغاه. فهو لم يَطْلُبْ مباشرةً أخْذَ يوسف، ولم يَقُلْ لأبيه إنه سيأخذُ يوسف معه غداً، بَلْ لم يُبادرْ بأي طلب، بلْ أرَادَ أنْ يضعَ أباهُ في وضعٍ نفسي يتوافَقُ معَ فكرةِ عدمِ إعطاءِ يوسفَ حقوقَه الطبيعية، في ظلِ الطفولةِ التي يَحْيا، وكأنّ الأبَ العطوفَ الحنونَ المُحِبّ لولدِه، مُقَصِّرٌ في حقِه.. ولكي يكونَ للكلامِ وقْعٌ أعْلَى في النفس، يستعمِلُ معَ الفكرةِ المؤنَّبَةِ أسلوبَ الاستفهامِ الإنكاري، فإذا به يقول: **﴿يا أبانا مالَكَ لا تأمنا على يُوسف﴾**

اللطيفة الثانية: في قولِه تعالى: **﴿قالوا يا أبانا مَالك لا تأمنا على يوسف﴾** هي في فَهْمِنا للمؤثِّراتِ النفسيةِ التي يَعْتَمِدُها الناس في الوصولِ إلى مآربهم. والمبدأ فيها هو التالي: جابِه مُحَدِّثَكَ بأمورٍ ضَخْمةٍ كبيرة، تملأُ عليه حالَه،

وتضَعْهُ في حالٍ نفسيةٍ صعبة، يَبْحَثُ مَعَهَا عَنْ حلولٍ كبيرةٍ لمشاكل كبيرة. ثم قدِّمْ مَطْلَبَك الذي ترْغَبُ في الحصولِ عليه، فتُهَوِّنْ عليه التلبية.

إنَّ هذا المبدأ هو القائمُ حالياً في حوارِ الأقوياءِ معَ الضُّعفاءِ، وهو المبدأ الذي يعتمِدُه اليهودُ في كلِّ بقاعِ الأرض، والذي بموجِبهِ جَنْدُوا كُلَّ القُوى لمصْلَحتِهم، ولا يزَالون.

اللطيفة الثالثة: في هذا الشطر من الآية إجتماعيةٌ أسْرِيّة: فقد يستَغْرِبُ الواحدُ مِنّا أن يحصُل ضِمنَ العائلةِ الواحدةِ أنْ يَمْنَعَ رجلٌ أبناءَه منَ الاستفرادِ بأخِيهم، وأنْ يتِمّ حِفْظُهُ وصَوْنُه ومُراقبتُه بصورةٍ دائمةٍ ليلَ نهار، مما قد يُوجِدُ ثُغرةً في إعطاءِ هذا الطفلِ حُقوقَه في اللّعبِ والترويح. والجوابُ على هذا، يَكْمُنُ في الخُصوصيةِ التي شاءَها الله تعالى ليعقوبَ عليه السلام: فهو رجلٌ مِمن اصْطَفَى الله تعالى منَ الأنبياء، وهو يسيرُ بهدْيٍ منَ الله تعالى، وما حِفْظُه ليوسفَ بهذا الأسلوب، إلا لعلمٍ اختصَّهُ الله تعالى به، فعَمِلَ بموجبِه مجتهداً، ولأنَّ قضاءَ الله تعالى واقعٌ لا محال، فها هي ذِي ظروفُ وقوعِ القضاءِ تتكاملُ دُونَ انتباهِ الفاعلين، والله تعالى يُعطي ما يشاءُ لمنْ يشاءُ بمِقْدار، وإنّا لنبتسمُ حين نَرى اجتهادَ إخوةَ يوسفَ في تدبيرِ المكائد وإعمالِ الفِكر، وشَحْذِ الهمم في التحايلِ والاحتيال، والله تعالى مِنْ وَرَائِهم محيط.

ثم يقولُ الله تعالى: ﴿وإنّا له لناصحون﴾.

هنا يبدأ أولُ لفظٍ عملِي، في التجسيدِ الماديِّ للتخلُّصِ من يوسفَ عليه السلام، ألا وهو الكَذِب. وأصلُ الخُطةِ قائمٌ على الكَذِب، إذ إنّ المكيدَة تحتاجُ كَذِبا: إمّا أنْ يكونَ بسيطاً، في حالِ سهولةِ التنفيذ، وإمّا أنْ يكونَ مُعَقّداً مُرَكّباً، يقتضي درجاتٍ متعاقبةً منَ الكذب، معَ اعتمادِ وسائِله.

والوسائلُ على أنواع:

فهناك: وسائلُ الإقناعِ الكلامية، بأنْ يعتمدَ المتحدِّثُ أُسلوبَ التسلْسُلِ المنطقيِّ في السرد. معتمِداً على وقائعَ وظروفٍ وأحداثٍ تتصلُ اتصالاً مباشِراً مع الحدث..

وهناك: التلطُّفُ في الحديث، للإيحاءِ بالصِدق، ولأخذِ الثقة، وهو عاملٌ ضروريٌ لحصُولِ القَبولِ لدى الطَّرَفِ الآخر.

وهناك: المنهجيةُ المتماسكة، والتقدُّمُ بالبراهين، إما القولية، وإما الفِعلية، في مرحلةٍ مِنْ مرَاحِلِ الإقناع. وتكرارُ ذلك، بهدفِ ترسيخ جوِّ الثقةِ وتدعيمِه في نفس المُحدَّث.

وهناك: رَبْطُ الأقوالِ بالأفعال، والقيامُ بأعمالٍ مادية، إما تمهيديةً لتوثيق الإقناع. وإمّا عملانيَّة لإثباتِ الجدِّيَّةِ في التنفيذ. على الأقل، في المرحلةِ الأُولى منَ التنفيذ، حتى الاستيلاءِ الكامل على الثقة.

وفي قولِهم: وإنا له لنَاصِحون. جزءٌ منْ تنفيذِ الخُطةِ، بالكذبِ على أبيهم أنهم يريدونَ له الخير والنُّصح. وهم يُظهِرُون خلافَ ما يُضْمِرون، وقولُهم هذا اعتراضِيٌ في وسَطِ الخُطّة، في ظاهرِ الحال، لا ضرورةَ له، إلا أنه عنصرٌ أساسيٌ من عناصرِ الإقناعِ المطلوبة.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿أرْسِلْه معَنا غداً يرتَعْ ويَلْعَبْ وإنّا له لحافظون﴾**

في هذه الآية لِطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في قولِهم: **﴿أرْسِلْه مَعَنا غداً يرتعْ ويلْعَبْ﴾**.

فبعدَ أنْ حَضَّروا لمطْلَبهم بوضع أبيهم في حالِ ارتقابٍ معَ عُنوانٍ واسعٍ غامضٍ، يتَناوَلُ كلّ مَصالِحِ يوسفَ وحقوقِه، إذا بهم يَطْلُبونَ مَطْلَباً بَسيطاً غَلّفُوهُ

بأمرِ مُحبّبٍ، زيادةً في الإقناعِ، فأشاروا إلى مسألتينِ اثنتين:

الأُولى: أنْ يكونَ له مجالٌ لإطلاقِ رغبتِه في الحصولِ على ما يشاءُ من طَعامٍ وشرابٍ في جوٍ منَ الانشراحِ والحُبور، وفي الفَلاةِ حيثُ ترتاحُ الجَوارِحُ مِنْ أثرِ التقييدِ في الموقعِ الواحد..

الثانية: أنْ يُطْلِقَ قُواهُ البدنية، ويتركَ لها مجالَ التمرينِ..

فلا تنْشَطُ العضَلاتُ ولا يَشْتَدُّ العودُ إلا في الجري.

اللطيفة الثانية: في قولهم: **﴿غداً﴾** هنا أيضاً، نجدُ أنّ التورية تلْعَبُ دورها في الخُطةِ المعتَمدة، لإقناع الأب بإرسالِ ابنِه معهم. فلو قالوا أرْسِلْه معنا الآن. لتوجّس خيفة، وتصاعَدَتْ شكوكه، فإذا بهم يطْلُبُونَ أخاهم على التراخي: أرْسِلْه معَنا غداً. وَهُمْ في نُفوسِهم يتَمَّنونَ لو يأخذونَه في الحال. ولكنهم لا يُريدونَ أنْ يتركوا أية ثُغرةٍ في خُطّتِهم تفتحُ مجالاً للشّكِّ في صِدْقِ نواياهم.

اللطيفة الثالثة: في قولِهم، **﴿وإنّا له لحافظون﴾**. فالعبارةُ هنا، تأْتي بتناسُقٍ لُغوي. جميل، معَ العبارةِ في الآيةِ السابقة: **﴿وإنّا له لناصحون﴾** فضلاً عَنْ كونِها تأتي تثبيتاً لكذبِهم، وقد أضْمَرُوا له عدمَ الحِفْظ، وقد أعدَّ الله تعالى له كاملَ الحِفْظ، ويمكرُون ويمكرُ الله، فالله خيرُ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية

١ - للتنبيه حال حصول محاولة إقناع مغلفة بوسائل إحتيالية يكون ظاهر القول فيها جيداً مفيداً فيما يخفي باطنه الكيد والإحتيال.

٢ - استعمال عبارة «يرتع ويلعب» للدلالة على مجمل أحوال لهو الأطفال، وهي ذات وقع جميل في الأذن